سلوى النعيمي

برهان العسل

رواية



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

برهان العسل

سلوى النعيمي

برهان العسل

رواية



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

EVIDENCE OF HONEY

By

Salwa al-Nuaimi

First Published in January 2007

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-281-3

لوحة الغلاف: للفنان التونسي رؤوف كراي
تصميم الغلاف: حسن إدلبي
الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

المحتويات

(الوجه المشتهى ليس ذكرى ولا حلماً، قد يجمع بينهما ولكنه يتخطاهما. المشتهى هو تدويم اللحظة المرغوبة تدويماً بلا انتهاء).

أنسي الحاج

(أيها الجسد تذكر مراقد المتعة، وكم كنتَ محبوباً. تذكر أيضاً الرغبات التي توهجت في العيون التي لم تقو على كبتها عندما رأتك، ورعشة الأصوات تحت وطأة تلك الرغبات التي ما أحبطت إلا لغير المتوقع من العقبات.

والآن، وقد أضحى كل ذلك في عداد الماضي، أكاد أقول إنك أنت أيضاً أيها الجسد المشتهى استسلمت لتلك الرغبات.

تذكر، كم توهجت العيون التي رأتك. تذكر، أيها الجسد، الرعشة أيضاً في الأصوات).

كافافي

(ستأتي إليها حاسر الرأس، حافي القدمين).

سليم رزق الله

(غداً أو بعد غد ، أو ربما بعد سنين، ستكتب القصيدة العارمة التي كانت بدايتها ها هنا).

كافافي

١

باب أزواج المتعة وكتب الباه

هناك من يستحضرُ الأرواحَ، أنا أستحضرُ الأجسادَ. لا أعرفُ روحي ولا أرواحَ الآخرين، أعرفُ جسدي وأجسادَهم.

هذا يكفيني.

أستحضرهم وأعودُ إلى حكاياتي معهم عابرين في جسدٍ عابرٍ. لم يكونوا لي أكثرَ من ذلك. الأمورُ محددةُ الأفقِ منذُ البدايةِ. إذن؟.

أستعملهم؟، أدوات جنسية؟، ولم لا؟.

عشاق؟

كلمة كبيرة. لا يمكنني أن أستخدمها، ولا حتى بيني وبين نفسي. كان «المفكر» هو الوحيد الذي استعملها مرة وصُدمت. عشيق؟. ليس لدي عشاق. يجب أن أجد كلمة أخرى. لم أتعب نفسي

في البحث عنها. كنت أحكي له مرة عن صديقة لي التقت به في حفلة عامة. سألني بخفة: هل تعرف أني عشيق صديقتها؟ كانت حكايته سري ولم يهزني السؤال. هزتني الكلمة: عشيق.

«المفكر» عشيقي؟. لم يخطر لي هذا أبداً.

هل يمكن أن أكون عشيقة رجل لا أريد منه إلا أن يحضنني في مكان مغلق؟.

هل يمكن أن أكون عشيقة رجل لا أريد منه إلا هذه الساعات المسروقة؟.

لم أذهب أبعدَ في التأويل لأن «المفكر» قال لي كعادته: عندي فكرة. يقترِبُ من السرير، أنبطح على بطني رافعةً ظهري معتمدةً على ذراعيّ، هو خلفي ولا أراه، تمرُّ كفاه بإصرار ترسمان حدودي من الكتفين إلى الفخذين لتستقرا على مؤخرتي، يشدني إليه، ألتصقِ به أكثرَ كي أمتلئ به أكثر، أدفن وجهي في الوسادة لأخنقَ همهمات لذتي المتوحدة مع حركاتنا وكلماتنا. كنت أعرف أن **الجماعَ أفحشُه ألذه**، ومع ذلك كنت أحاول أن أكتم حتى أنيني.

يشدني إليه، وتلِك الوضعية هي أكثر ما أحب، وأكثر ما يحب.

في تلك الوضعية تلتقي وجهاتُ نظرنا مع اختلاف الزاويتين. المهم هو نقطة الالتقاء.

أُخرس أصواتي وأنسى الصديقات وعلومَ التأويل والتفسير والفلسفةَ النظرية أمام كل هذا التفاهم في التطبيق العملي.

عشاق؟.

من المؤكد أن «المفكر» كان محقاً في استعمالها. عيبي أنني آتية من كوكب لغوي آخر. كوكب لغة نسائية عليّ أن أخترعها. ألجأ عادة إلى المعاجم، لكنها لا ترضيني دائماً. هي لغتهم ومفاهيمهم. أجد كلمة (عشاق) واسعة على كل أولئك الرجال الذين عرفتهم.

حتى على المفكر؟.

عشاق؟.

منذ البداية، يكون اللقاء. تتوامضُ العينان في لمحة ما وينحسم الرد في داخلي بنوع من الحدس الباتر. منذ اللحظة الأولى. حتى قبل أن يقدم لي الراغب أوراق اعتماد شهوته. ما يهمني هو رغبتي أنا. رغبتي النادرة.

(نعم) أو (لا) تأتي وحدها بعد تحليل سريع جداً. القرار يأتي وحده. تمّحي كل القواعد. لا أصغي إلا إلى صوتي. صوت رغبتي. رغبتي النادرة.

أملك حساً أخلاقياً لا علاقة له بقيم العالم الذي يحيط بي. رفضتها منذ زمن لا أتذكره. هذا الحس الأخلاقي الشخصي هو الذي يزن أفعالي ويمليها علي. أنا التي برمجت معاييري. ما يهمني هو معنى ما أفعل وانعكاسه عليّ وعلى حياتي: وجهي بعد الحب ولمعة عينيّ وللمة أجزائي وجذوة الكلمات تتقد حكايات في صدري.

هكذا عرفت باكراً ما أريد: عقل متيقظ في جسد متيقظ. حتى قبل أن أقرأ في الكتب الجنسية العربية العزيزة عليّ ما يدعم مواقفي.

قال الجوّاب إنني لم أعرف رجلاً إلا زوجي.

قال إنني أرفض كل رجل يشتهيني لأنَّ لدي حساً أخلاقياً عالياً يجعلني أخاف من المجتمع ومن حكم الرجل عليّ لو قبلت عرضه.

قال إنها بقايا تربيتي الطهرانية القديمة.

قال إن هذا يشلني ويكبحني ويقيدني.

قال إنني أعد قبولي الجنسي نوعاً من الخضوع.

قال إنني أخاف أن يخفت أَلَقِي في عيني الرجل الذي أقبل به.

قال إنني لا أملك الثقة الكافية بجسدي ولا أجرؤ على تعريته أمام رجل.

قال إنني أرفض نموذج صديقتي التي تقول نعم لأي رجل وأعتبرها مستهترة رخيصة.

قلت: ربما، واعيةً أنني بعيدة عن هذا مسافات ضوئية.

قلت: ربما، كي لا أقول له: إن رفضي الجسدي له لا يعني رفضي المطلق لكل الرجال.

قلت: ربما، وأنا ألعب لعبة أتظاهر فيها بقبول تفسيراته التي تطمئنني إلى نجاح لعبتي الاجتماعية.

أن أرفضَ رجلاً يعني أني أرفضُ الجميع؟. أن أقول: «لا» لرغبة رجل يعني أني أقول: «لا» لكل الرجال؟. تفسير ذكوري مريح للجميع وأولهم أنا.

كنت أقول: ربما، لأنني لا أريد أن أوضح للآخرين. ماذا أقول لهم؟. إنه ليس لدي أي مرجع أعود إليه إلا نفسي وما أريده أنا؟، لا مفاهيمهم، ولا قيمهم، ولا أخلاقياتهم؟. لا المجتمع ولا الدين ولا التقاليد؟. لا الخوف من ألسنة الناس، ولا رهبة العقاب، ولا نار جهنم؟.

أعرف أنني، بعكس كل ما علمونا، متعددةُ الأزواج بالطبع، مثل غالبية النساء ربما. ليس هذا هو التعبير الملائم. يجب أن أقول: متعددة العشاق، أو، على الأصح، متعددة الرجال.

منذ سنوات رأيت ألبرتو مورافيا في مقابلة يتحدث عن هذه التعددية الطبيعية عند المرأة ووقَعَت جملته علي كالوحي. كان يضع في كلماتٍ ما أعرفه نظرياً وما أطبقه عملياً. بعدها قرأت المقولة نفسها عند فيلسوف فرنسي معاصر ينظّر للذة ويطبق الفكرة التعددية على كل إنسان، رجلاً كان أو امرأة. قرأته بنهم سعيد مع أني لم أكن بحاجة إليه: كانت حياتي برهاناً على أفكاره.

هل سمعت حديث مورافيا قبل المفكر أو بعد المفكر؟. لا أذكر تماماً.

هل قرأت الفيلسوف الفرنسي قبل المفكر أو بعد المفكر؟. لا أذكر تماماً.

أذكر فقط أنني التقيت به في عز انغماسي في قراءة كتب التراث

الجنسي. صرت أتسلى بإحالة كل ما يحصل بيننا إلى النصوص القديمة، أقرأها عليه وأتفنن في فصفصتها. لم يكن يعرف منها إلا كتاباً واحداً:

[رجوع الشيخ إلى صباه].

قرأته خفية في بداية مراهقتي. أعارته لي تلميذة في المدرسة الإعدادية لم تكن صديقتي. أكبر بسنوات من بقية بنات الصف، تستعمل أحمر الشفاه وتكحل عينيها وتتناقل التلميذات حولها حكايات غامضة لم تكن تُروى أمامنا نحن الأصغر سناً إلا نُتَفاً: عن آثار الضرب على جسدها، عن أهلها الذين يريدون تزويجها مرغمة، عما تردده دائماً من أنها ستمرغ اسم العائلة في التراب انتقاماً منهم، عن الصبيان الذين ينتظرونها على باب المدرسة من دون مداراة.

ما عدت أذكر كيف وقعت عيناي على الكتاب معها ولا كيف أعارتني إياه وهي تحلِّفني ألا يراه إنسان. أذكر صَدْمتي الأولى وخوفي من أن يضبطني أحد متلبسةً بحمله. لم يكن هناك من يراقب قراءاتي ويقيد حريتها، لكنني حدست أنني أرتكب فِعلاً علي أن أخفيه عن الآخرين. قرأته بسرعة أكدت لي موقفي. أذكر فقط رغبتي في الاكتشاف وخوفي مما ينفتح أمامي. عيناي تحملقان إلى الصفحات ونبضات قلبي تتسارع. أخفيته بين كتبي المدرسية وأعدته إلى صاحبته في اليوم التالي. نَظَرَتْ إليّ بفضول مترقب. وضعته بين يديها بجدية محايدة ولم أقل شيئاً. استعادته بنوع من الخيبة أمام رد فعلي وخبأته بسرعة في حقيبتها وهي تدير لي ظهرها.

كنت صغيرة لكن عوالمي السرية كانت قد وضعت أسسها من قبلُ. امتلكتُ باكراً موهبة الازدواج ومارستُها متراساً لحريتي في مواجهة نفاق العالم.

تحريتُ بعدها بسنوات، بالتجربة العملية، حقيقة ما كتبه شيوخي من المؤلفين العرب عن (فوائد الجماع) كما يسمونها، جسديةً ونفسيةً وذهنيةً، **فهو يُسكن الغضب وينفع لفرح النفس لمن طبعه الحرارة. وهو علاج شاف من ظلمة البصر والدوران وثقل الرأس وأوجاع الجنبين، مما يعمي القلب ويغلق أبواب الفكر.** أعرف أيضاً ضرر ألا أفعل. **قال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت أعضاء قوته وانسدت مجاريها وضمر ذكره، وقد رأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم الكآبة بلا سبب، وعرفت لهم أمراض الماليخوليا وقلّت شهوتهم وهضمهم.**

أمراض نفسية وجسدية؟. الجنون والكآبة والماليخوليا دفعة واحدة بسبب الكبت الجنسي؟. أعاذنا الله وأبعدنا عنها جميعاً.

قال ابن الأزرق: كل شهوة يعطيها الرجل نفسه فإنها تقسي قلبه إلا الجماع. ومن هنا جاء حرصي على رقة قلبي.

تدربت على أن أتحدث دائماً مع الآخرين على المستوى النظري فقط عندما يتعلق الأمر بالجنس. قد أعطي أمثلة من الكتب أو من حياة غيري، أما حياتي الموازية فقد كانت مخبوءة في قمقم لا أفتحه إلا وحيدةً ليخرج منه جِنيٌّ ذاكرتي.

جاء المفكر وقلتُ له نعم؟

لم أحك لأحد في البداية عن هذا الولع المعرفي. كانت هذه الكتب سري الذي لا أشارك فيه أحداً. جاء المفكر وقلت له: نعم. جاء المفكر وانفتح القمقم. في السرير حكيت له عن قراءاتي السرية. تداخل السران وامتزجا نهراً واحداً.

في تلك الأيام كنت أكتفي بالتلذذ بهذه الكتب واستعادتها معه. في البداية كنت أبحث عن اسم كل وضع جنسي وأنقله له. صارت الأسماء المضحكة في أغلب الأحيان شيفرة سرية نتناقلها بيننا ببراءة ظاهرية، نطعِّم بها حديثنا في حضور الآخرين، ونتفنن في تمريرها في كل سياق. لم يكن ذلك سهلاً: كيف يمكنك أن تلفظ كلمات مثل **المُقَمَّع والكباشي والكوري واللوي وخياطة الحب** في جملة مفيدة؟. كان جهل الآخرين عوناً على اللعب نستغله من دون حرج.

كنت واثقة من أنه لا أحد يستطيع أن يتوقف عند هذه الكلمات، إلا إذا كان خبيراً بكتب الباه، يقرأها ويعيد، مثلي أنا. هذا نادر، حتى في أوساط المثقفين العارفين بأمور التراث. تأكدت منه بالتجربة العملية، وكانت طريفة في كل مرة.

مع «المفكر» أدركت قيمة ما أقرأ ووعيت أهميته. صرت أتنقل بين أحمد بن يوسف التيفاشي، وعلي بن نصر، والسموأل بن يحيى، ونصر الدين الطوسي، ومحمد النفزاوي، وأحمد بن سليمان، وعلي الكاتبي القزويني، والسُّيوطي، والتيجاني، وكأنني بين أصدقاء. أقرأهم وأستعيدهم، أتمزمز بنصوصهم وأترجم حياتي إلى كلماتهم. أحتفظ بها لغةً سريّةً لا أجرؤ على البوح بها، إلا للمفكر.

لماذا كان هذا التلاقي بين المفكر وكتبي السرية؟.

يخطر لي أنني انتقلت معه إلى مرحلة وعي جنسي ما كان يمكن أن تنفصل عن قراءاتي. تداخلت التجربة العملية بقاعدة نظرية، وما كان يمكن لهذا التقاطع إلا أن يقدح شرراً. كنت أتسلى بإحالة ما أعيش معه إلى مقاطع من هذه الكتب. أنقلها له أولاً بأول وينظر إلي بدهشة: هذا كنز معتم عليه لا يعرفه إلا القليلون. يجب الكتابة عنه والتعريف به.

كان المفكر سري وكانت الكتب جزءاً من هذا السر.

كانت الحرية التي يكتب بها القدماء تمد لي لسانها مع صفوف الكلمات التي لا أجرؤ على استعمالها، لا شفوياً ولا تحريرياً. لغة مهيِّجة. لا يمكنني أن أقرأ مقطعاً من دون أن أتبلل. لا يمكن للغة أجنبية أن تثيرني هكذا. العربية هي لغة الجنس عندي. لا يمكن للغة أخرى أن تحل محلها وقت الحمى، حتى مع غير الناطقين بها، من دون الحاجة إلى ترجمة طبعاً.

كانت الكلمات الممنوعة تحيي تاريخاً من الكبت الجنسي وتحيي معه مقاومة هذا الكبت. الطريف أنني لم أكن أستعمل هذه المفردات، حتى بيني وبين نفسي. مفردات للقراءة فقط. لا للكلام ولا للكتابة. حتى الآن يصعب علي أن أستعمل في لغتي كلمة من «الكلمات الكبيرة». أتحاشاها. يمكنني أن أنقلها، وأن أستشهد بها وبراءة الأطفال في عينيّ، مهما كانت ساخنة. أما أن أستعملها للحديث عني وعن تجاربي فتلك حكاية أخرى.

هذه النصوص جزء من ثقافتي. هذه النصوص جزء من مخيلتي.

هذه النصوص جزء من حياتي الجنسية. قبل المفكر، ومعه، ومن بعده. في هذه المنطقة الحساسة من تشابك التجارب من المستحيل أن تفك أي ارتباط. التداخل هنا عضوي. نعم عضوي. هل يمكن لي أن أستبدلها بأية كلمة أخرى؟.

عرفت باكراً ما أريد وقررت أن ألعب لعبتي الخاصة. أدرجت هذا جزءاً من حياتي السرية التي لا يعرفها أحد غيري. لستُ ملزمة بتقديم تقارير عنها لأي إنسان. لا أريد من الآخرين موافقة، ولا صفحاً، ولا مشاركة. حياتي لي وحدي، وأسراري لي وحدي.

في البداية ما كنت أريد لهذا الارتباط أن ينفك. لم أكن أريد أن أزيح الستار عنه. أن أعلنه. لم أجرؤ يوماً حتى على الحديث عنه.

كنت أعده فضيحة.

كنت أتساءل إن كانت الفضيحة في الفعل أم في إعلان الفعل؟. كنتُ أَدهشُ حتى لسؤالي وأقول لنفسي: إن معلميّ القدماء كانوا أكبر من هذا السؤال.

فضيحة قلت؟.

ما الفضيحة؟.

هل كوني امرأة هو الذي يفخخ قراءاتي السرية؟.

أليس اعتباري لها سراً جزءاً من تلك التربية المخصية التي ربيت عليها. لماذا يمكنني أن أتباهى بقراءة الأدب البورنوغرافي الغربي والشرقي وأخفي قراءاتي للتيفاشي؟. لماذا أعلن عن ولعي بجورج

باتاي وهنري ميللر والماركيز دو ساد وكازانوفا والكاما سوترا، وأتناسى السيوطي والنفزاوي؟ هذه حكايات قديمة على كل حال، وقراءاتي الخبيئة صارت موضة الآن، الجميع يتحدثون عنها وأولهم أنا. سري القديم انفضح واتضح.

انفضح واتضح وصار مثل غمزة بياع الزعتر، يراها الجميع.

بمرور السنوات خف تشنجي وتشنج الآخرين. المزحات والضحكات والتعليقات جاءت شيئاً فشيئاً. اهتماماتي بدأت تعلن عن نفسها أمام الآخرين، ولاسيما بعد زمن المفكر. صارت قراءاتي حكاية من حكايات المكتبة. من زملائي من يعدها لعبة، ومنهم من يتصورها انحرافاً، ومنهم من يتخيل الأكمة التي تخفي ما تخفي وراءها، يحللونها ويتهامسون فيما بينهم.

انفضحت العادة السرية وما عدت بحاجة إلى التستر وإخفاء الأغلفة. أفرح بكل جديد من كتبي المفضلة، وأعلن فرحتي على الملأ. بل صار هناك من الزملاء من يتطوع لزف البشرى إلي عندما يعثر على كتاب لا أعرفه.

بمرور السنوات صارت كتب الباه اهتماماً عادياً، أو شبه عادي. مثلي مثل الزميل الذي يبحث عن كتب الطبخ، والزميلة التي تهتم بالخرائط القديمة. لكلٍّ هوسه.

عرفت باكراً ما أريد وقررت أن ألعب لعبتي الخاصة. أدرجت هذا جزءاً من حياتي السرية التي لا يعرفها أحد غيري. لستُ ملزمة بتقديم تقارير عنها لأي إنسان. لا أريد من الآخرين موافقة، ولا صفحاً، ولا مشاركة. حياتي لي وحدي، وأسراري لي وحدي.

عرفت باكراً ما أريد ولعبت لعبة سهلة: لم أُخف يوماً ما أفكر به نظرياً، مهما كان صادماً للآخرين، بعيداً عما يعتبرونه الصراط الاجتماعي المستقيم. خبأت فقط إعلان التطبيقات العملية لأفكاري. هذه وحدها خطوة خطيرة في مجتمع لا يعرف إلا التقية وإعلانات الرضوخ. عندما قلت يوماً أمام الزميلات والزملاء، حول طاولة غداء، إن الزواج الأحادي مخالف الطبيعة، وإن كلمات مثل: الإخلاص، كذبةٌ كبيرة، وإن الرغبة الجنسية لا يمكن إلا أن تكون حرة، وإنَّ، وإنَّ.. نظروا إلي بارتياب اتهامي قبل أن تبدأ مناقشة حامية لم أشارك فيها. كنت أحب أن ألقي جُملاً من هذا النوع، وأتأمل رد فعل الآخرين.

تمرست بإخفاء حب الزوج عن العشاق، كما تعلمتُ من مرغريت دوراس، وعن الزوج حب العشاق، كما تتقن النساء.

تعلمتُ أن أكون الحارسة الوحيدة لأسراري. سري لا يمكن أن يُكشف لأنني لا أقوله لأحد. كل سر جاوز الاثنين شاع؟. لا. كل سر جاوزني شاع.

كان كابوسي المتكرر في لياليّ بسيناريو واحد لا يتغير: هناك جثة مخبوءة في مكان ما والقاتلة هي أنا. الجثة خبأتها بحرص وأعيش رعب اكتشافها. أحاول عبثاً أن أتحايل كي لا يراها الآخرون. ولكنهم سيرونها بين لحظة وأخرى. الكابوس هي هذه اللحظات التي تسبق اكتشاف الآخرين لجريمتي، لجثة كل أسراري المخبأة. كنت أفتح عينيّ في الظلام أرتعش رعباً. الجثة في الخزانة، يقول المثل الفرنسي، وأنا لم أذهب أبعد في التعبير عن حياتي المزدوجة. كان كل شيء واضحاً، وما كنت بحاجة إلى خبراء في تأويل الأحلام.

تعودت أن أصاب بفقدان الذاكرة الإرادي سلاحاً في حياتي مع الآخرين. أنسى ما أريد وأتذكر ما أريد. رياضة تمرنت عليها سنوات طويلة إلى أن تحولت إلى تصرف غريزي لا يحتاج إلى تفكير.

مرجعي هو أنا وما كان علي أن أبحث عن تصريح أرضي أو سماوي. ما كان علي أن أبحث عن فتوى شرعية تسمح لي بأن ألتصق برجالي في ساعات الحمى، كما في حكاية «السريع» التي صرعنا بها عن زميلته الصحافية في رحلة عمل مشتركة: جاءت تطرق باب غرفته في الفندق بعد منتصف الليل كي يكون أحد شاهدي زواج عاجل، لأن الأفريقي الذي أعجبها وأعجبته يرفض أن ينام معها إلا بالحلال. حكى «السريع» الحكاية للدنيا كلها، وكان الجميع ينقلونها عنه وكأنهم كانوا معه، تأكيداً لصحتها، شامتين هازئين. أذكر أنني حكيتها للمفكر وبدأنا نبحث عابثين في أسماء الناس حولنا عن شهود عدول لنا.

ماذا يمكن لنا أن نسمي هذا؟. زواج متعة؟. هل يمكن لي أن أعد كل رجل عرفت، بالمعنى التوراتي، زوج متعة؟.

زواج متعة؟. يبدو لي التناقض أساسياً بين المضاف والمضاف إليه. الأولى تغلق النفس والأفق، والثانية تفتحهما.

ربما كانت الفضيلة الوحيدة لزواج المتعة أنه نكاح إلى أجل معين، وترجمتها: زواج مؤقت. هذا يعفينا منذ البداية من أبدية الزواج النظرية على الأقل، ويخفف وطأته النفسية.

زواج المتعة للشيعة فقط؟. هذا لا يعني شيئاً لي. أنا لا أعرف

الطائفية ولا الانقسامات الدينية.

على كل حال، لا يمكن لي أن أعد رجالي العابرين أزواجَ متعة لأنني لم ألتزم حتى الآن بالأحكام الشرعية التي تقول: **إن الزواج المنقطع كالدائم يحتاج إلى عقد مشتمل على إيجاب وقبول لفظيين، ولا يكفي فيه فقط الرضا القلبي من الطرفين. إذن فعقد زواج المتعة عقد شرعي لا إشكال عليه بتمام شروطه. روي عن أبان بن تغلب أنه قال لأبي عبد الله: كيف يعقد على المرأة إذا خلي بها. قال: تقول: أتزوجك متعةً على كتاب الله وسنة نبيه، لا وارثة ولا موروثة، كذا وكذا يوماً. فإن قالت: نعم، فقد رضِيَت، فهي امرأتك وأنت أولى الناس بها.**

لا أعرف من أين أتى الأفريقي بحكاية الشاهدين؟. لا أجد لها أثراً في كتب الفقه. في الواقع، ما كان هذا يعنيني، وفي طقوسي السرية اكتفيت بالرغبة المعلنة جسدياً. من كل ما قرأت ودرست وتعلمت وعُلِّمت لم يبق في رأسي إلا كلمة الرغبة ولذة إشباعها.

٢

باب المفكر والتاريخ الشخصي

المفكر حكاية وحده.

قسمت حياتي قسمين: ق م، وب م: قبل المفكر وبعد المفكر.

كنت أصل إليه مبللة تماماً. يكفي أن أفكر فيه كي يفور دمي.

كان المفكر يقولها لي: أنت دائماً مهتاجة. لم أرك إلا محمومة. كنت أبتسم ولا يخطر لي أن أشرح له أنه سبب ارتفاع الحرارة في صدري. أرتمي عليه وتتأكد تحليلاته.

مرة في المترو كنت مستغرقة في استرجاع لقائي معه عندما تنبهت إلى الرجل الجالس في مواجهتي يحدق فيّ. ينظر إلي وكأنه يتفرج على فيلم بورنوغرافي. ينظر إليّ وكأنه يقرأ أفكاري. ألم يقل لي المفكر مرة، ونحن في المقهى وأنا أغالب شهوتي إليه في مكان عام: لم أعرف قبلك امرأة يعلن وجهها «انتصابها».

كنت أصل إليه مبللة وأول ما يفعله هو أن يمد إصبعه بين ساقي يتفقد «العسل» كما كان يسميه، يذوقه ويقبلني ويوغل عميقاً في فمي وأقول له: من الواضح أنك تطبق وصايا الرسول وتقتدي به: **لا يقع أحد منكم على أهله كما تقع البهيمة. وليكن بينكما رسول: القبلة والحديث. وعن عائشة: إن رسول الله كان إذا قبل الواحدة منا مص لسانها.**

كيف يمكنني ألا أكون بنت هذا التراث؟.

كيف يمكن ألا أذكر المفكر به؟.

لم يكن بحاجة إلى من يذكره بتراثه. هنا كان مسلماً بامتياز. وأنا أيضاً.

كنت أذهب إليه في الصباح قبل العمل. أصعد الدرج ركضاً. رنة الجرس الخفيفة ويفتح الباب فوراً وكأنه ينتظرني وراءه، نصفَ نائم. أرمي ملابسي وأدخل السرير ملتهبة. ألتصق به وأبدأ في تشممه. يرفع الغطاء وتمر يده على تفاصيلي ببطء. يتذوق عسلي بجدية راضية، وأتفقد بشفتي كل موضع من جسده. عيناي مفتوحتان وجسدي. بين تسرعي المتلهف وتمهله المتلذذ نجد إيقاعنا. يمر الوقت ولا نفترق. لا نتوقف. تحته، فوقه، إلى جانبه، منبطحة على بطني، راكعة على ركبتيّ. بين كل وضعية وأخرى يردد جملته: عندي فكرة. كانت أفكاره لا تنتهي، وأنا أحب الفلسفة. سميته: المفكر.

المفكر حكاية وحده.

قسمت حياتي قسمين: ق م، وب م: قبل المفكر وبعد المفكر.

قَبلَه كانت الجاهلية الأولى.

لا يعني هذا أنني كنت عذراء الروح أو الجسد. لا هذه ولا ذاك. لم أكن **مثل حواء التي سألت آدم عندما نام معها للمرة الأولى: ما هذا؟، قال: يسمونه النيك. قالت: أكثر لي منه فإنه طيب.**

أنا، مع تجاربي العملية وقراءاتي السرية والعلنية، كنت لا أعرف اللذة إلا معرفة شبه واعية. معرفة غامضة، كصورة قليلة الدقة، مهزوزة. جاء المفكر وانتظمت التفاصيل في أمكنتها. وضحت الخطوط والألوان وتركزت الإضاءة. لم أعد أمثل دوري، صرت أنا.

ق. م كانت الجاهلية الأولى؟.

ألتقي رجالاً، أصطفيهم ويصطفونني. أعرف ما أريد ولا يعنيني ماذا يريدون. صفحات ممتلئة بكلمات ينكتب بعضها فوق بعض. تتراكب من دون أن تمحي. وفي النهاية تنفرش أمامي مسودةً مشوشةً لا يحل رموزها أحد، ولا حتى أنا. صفحات مكتوبة بشيفرة سرية. جاء المفكر ليلقي الضوء وينظم الأساطير. لم يَجُبَّ ما قبله، لكنه جعلني أدخل في منطقة وعي جديدة لأقرأ سطري من جديد.

ب م، كان عصر النهضة الجنسية. نهضتي أنا. وكل ما عشته بعده مع رجال آخرين كان ملوناً بحكايتي معه.

هذا شيء لا علاقة له بالإشباع.

كنت قبله مكتفيةً شبعانةً مرتويةً وكان ذلك واضحاً علي. عندما

تشكت الصديقة أن بعض السحاقيات يغازلنها في تظاهرة فنية للنساء قلتُ مازحة: لم تغازلني أية امرأة حتى الآن، علق الجوّاب: رائحة الرجل تفوح منك على بعد كيلومترات وتريدين أن..

هو فهم ذلك أيضاً. كان يقول لي: اعتدتِ حتى الآن على شبع (الفاست فود)، معي تعيشين شيئاً آخر. كان محقاً؟.

ربما.

كان يقول لي: النساء نوعان: المرأة الخسة، والمرأة الجمرة. وأنا؟، أسأل بخبث. لا يرد بل يجذبني إلى صدره وأرتمي عليه ويقبل عيني وشفتي، وأمص ريقه، ويحسس على بطني وأفتح ساقيّ ويدخلني عميقاً ليحترق معي. أود أن أسأل: والرجال، كم نوعاً للرجال؟، وتنسيني لذتي كل الأسئلة.

إيقاعنا الواحد جاء منذ البداية. لم نحتج لتمرين أو دوزنة. يدهش هو ويعلن دهشته. لم يكن لدي الوقت كي أشاركه الإعلانات. كنت في حكايتي معه مكتملةً. أسكت. ألتصق بجسده وأغمر وجهي تحت إبطه وأتنفس رائحته ملء صدري.

فائدة الجماع الأول شهوة، والثاني لذة، والثالث شفاء.

كان يعانقني خلف الباب المغلق عناقَ الوداع ولا نستطيع فراقاً. يقبلني ويقبلني، ولا أستطيع فراقاً، وأركع أمامه وأنحني أفرك رأسي عليه وأريده أن يملأ فمي وأكاد أختنق لهفةً، وينتشر وأمتص شرهةً حتى آخر قطرة وأرفع عيني إليه لأرى وجهه المعذب باللذة يتشنج مرمياً إلى الوراء ويداه على شعري. الآن فقط يمكنني أن أعود إلى العالم مضيئةً بطعمه في فمي **ثقيلاً أبيضَ حلواً يتضوع**

برائحة الكافور الواخزة. كما في الكتب.

كان يقول لي: أنت جميلة. بعد كل فترة ابتعاد يقول وكأنه يُصدم لرؤيتي: تزدادين جمالاً. الترمل يليق بك. أفكر أنني لست أرملةً لا في غيابه ولا في حضوره. أبتسم وأكاد أعيد جواب غارانس في «أطفال الجنة»: لست جميلة، أنا حية فقط، هذا كل شيء. لا أقول شيئاً ويفهم صمت ابتسامتي.

كان يسوّر معصمي بين إصبعين ويقول لي: هذا ما يعود إليّ عندما أفكر بك. مفتوحةً ومغلقةً. تنطبقين عليه في حركة دائمة. هذا نادر. يضغط علي أكثر وهو يشرح لي. الاكتشافات معه لا تنتهي. كلها جديدة علي. هذه يسميها كسارة البندق. سأبحث عنها في المعجم الجنسي فوراً.

لا أقول له إنني أبقى أياماً بعد خروجه مني أتحرك بإحساس أنه ما يزال فيّ. أتحين الدقائق التي أبتعد فيها عن الآخرين لأغمض عينيّ وحدي: أمتلئ به من جديد.

يقول لي: لا تتكلمين كثيراً، وأكتفي بابتسامة. أكلم نفسي. تعودت أن أكلم نفسي. حتى معه؟.

كان يغمض عينيه وكأنه يستعيد صوراً مخزونة: ما يرتسم أمامي هو الأخدود وسط الظهر ينتهي على حدود الغمازتين العميقتين وخطوط المؤخرة تستدير بعد الخصر وما تحت القبة إلا طريق الحرير. تعرفين هذا؟ يسألني، وأجيب عابثة: لا أستطيع أن أرى ما ترى من الموقع نفسه. سأحضر آلة التصوير في المرة القادمة إذا كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لإقناعك. يجيب وكأنه يريد إفحامي.

قال لي المفكر يوماً بعد غياب: هل تفكرين فيّ؟. قلت: نعم. قال: إنه الحب إذن. سكتُّ ولم أجب.

ما كان للمفكر أن يمشي إلى جانبي من دون أن يضع يده على مؤخرتي يتحسسها من فوق الثياب أو على اللحم مباشرة. أصرخ مبتعدة: مجنون. نحن في الشارع. يرانا الناس. كنتُ جبانة، وحريتي الجنسية العملية لا تعبر عن نفسها إلا بعيداً من عيون الآخرين. تلفتين نظر الناس عندما تبتعدين. إنهم لا يرون شيئاً. لا أحد ينظر إلينا لو تابعت السير بهدوء، يرد وهو يعيد يده إلي. أشهق رغماً عني، وألتصق به وأنسى العيون الغريبة.

صار يبحث عن باب أول عمارة كي يجذبني إلى الداخل ويقبل شفتي ويمص لساني ويتحسس صدري. في البداية كنت مضطربة. بمرور الأيام صرت أمشي إلى جانبه وعيناي تبحثان معه عن مكان يمكنني فيه أن أقبله وأمص لسانه وأتحسس جسده.

كتب لي المفكر يوماً يتحدث عن الحب. قلت لنفسي: كيف يستعمل كلمة مثل هذه. أتجنبها قدر ما أستطيع. معه ومع الآخرين. أنا لا أعرف الحب، أعرف الشهوة. الحب ينتمي إلى عالم من الماورائيات يتجاوزني، ولا أريد أن أركض خلفه. الشهوة، شهوتي أو شهوة الآخر، أعرفها، ألمسها، أراها، أشمها، أعيش إعلاناتها وتحولاتها. هي وحدها تمسك بيدي وترافقني إلى مساحاتي المجهولة.

الحب للروح والشهوة للجسد. أنا لا روح لي. الجملة سكنت رأسي قبل أن أكتشف أن هناك تاريخاً حَرَمَ النساء من الأرواح.

عندما كنت صغيرة لم أجد روحي. عندما كبرتُ لم أتعب نفسي في البحث عنها. «لا روح لي» انحفرت الجملة في رأسي وصارت حياتي تمر من خلالها. كنت أعرف أني جسدي فقط. لا أملك شيئاً آخر. جسدي هو ذكائي ووعيي وثقافتي. من يشته جسدي يحبني. من يحب جسدي يشتهيني. هذا هو الحب الوحيد الذي أعرفه، والباقي أدبيات.

عندما سألني المفكر في البداية: هل ما بيننا هو الجنس فقط؟، لم أجب. لم أقل له: إنني لا أحب إلا بجسدي. ليس لدي تعبير آخر عن الحب.

ق م كانت حياتي المعلنة وحياتي السرية تتوازيان. كنت قد تعلمت في المدرسة صغيرةً أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان أبداً. يقول بعض المتهكمين: إن هذا التعريف تلحقه في مدارس المملكة العربية السعودية جملة: إلا بمشيئة الله. هذه حكاية أخرى.

كان خطا حياتي المتوازيان لا يلتقيان أبداً، كما في كتب الهندسة. جاء المفكر وبدأت الأمور تتخربط كما في الكتب المدرسية السعودية.

بدأت الأمور تتخربط في رأسي قبل كل شيء. صرت أحمله معي إلى حياتي المعلنة، أفكر فيه، أبحث عنه، أتشوق لرؤيته. بدأت أخاف. ليس هذا ما عودت نفسي عليه. التوازي هو عماد حياتي. زعزعته تعني أن ينقلب كل شيء، وما كنت أريد أن ينقلب. رسمتُ كل شيء بمهارة مخرج كبير، والخروج عن النص يعني شيئاً واحداً: لن أحرك خيوط حياتي بعد الآن. ستتفلت مني واحدة بعد الأخرى، ولن أقوى على الإمساك بها من جديد.

ما كان يمكنني أن أنظر إلى وجهي في المرآة من دون أن أتذكر ما يقوله لي «بعد الحب تسود عيناك ويضيء جلدك وكأن نوراً تحت مسامك». «كل النساء كذلك بعد الحب»، كنت أجيبُ. يقتربُ بوجهه من صدري، يمرغه بين ثديي، أضغط بذراعيّ حوله لينحشر بينهما أكثر، لأحسه بينهما أكثر.

ما كان يمكنني أن أرى جسدي إلا وأسترجع تعبيره لحظة اقترابنا الأولى وهو يسبح بحمد الله. ضحكتُ: الذي لا يحمد على مكروه سواه؟. يضمني إليه عاريةً حارةً، يقبلني وأنسى أن أضحك.

في الحلم كان المفكر ينتظرني، ولم أكن أعرف كيف أتخلص ممن يحيطون بي كي ألحق به. حكيتُ له الحلم ولم يضحك. كما في الحياة أنت في الحلم، عاجزةٌ، لا تستطيعين شيئاً. قالها لي بقسوة وهو ينظر في عينيّ. حولتُ وجهي عنه إلى الجهة الأخرى وتشاغلتُ بالنظر إلى العابرين لأتناسى دمي الصارخ وهيجان قلبي.

بدأت أخاف؟.

يوم تسلل المفكر إلى أحلامي عرفت أنني واقعةٌ في التهلكة. بدأ الجرف ينفتح أمامي وكنت أراه يتسع يوماً بعد يوم.

كتب لي المفكر يوماً يتحدث عن الحب، وكنت عمياء البصيرة وبدأت أخاف.

قبل المفكر لم أرَ واحداً من رجالي العابرين في أحلامي قبل أن يتحول إلى ذكرى منسية. لم يقفز أي منهم من الفراش إلى حلمي. كان عليهم أن يمروا بفترة تخمر في كهوفي السرية قبل أن

يأتوا إليّ في أحلامي لينعشوها. كنت بحاجة إلى زمن حليف كي أعيد خلقهم حكايات تؤجج مخيلتي وكلمات تنظم توازني. المفكر تسلل إليّ وأنا معه. جاء إلى الحلم من سرير ساخن. حرق المراحل وجاء إليّ، وصحوتُ.

وبدأت أخاف.

٣

باب الجنس والمدينة العربية

بعد صدمة الاكتشاف الأول قرأت بنهم ما أجد أمامي من الكتب الجنسية، عربيـةً أو مترجمةً. انتظرت سنوات كي أبدأ قراءاتي المنهجية. كان ذلك في بداية عملي في مكتبة الجامعة عندما عثرت على قائمة طويلة من عناوين كتب الجنس العربية. بدأت أقرأها بتنبه، واحداً واحداً. أليس جزءاً من مهماتي أن أعرف محتوى مقتنيات المكتبة؟.

بضمير مهني دؤوب بدأت إذن في مطالعتها. أعمل، والكتاب منها مغلفٌ بإحكام أو مستتر تحت كتاب آخر. في مكتبي أو في مواجهة جمهور المكتبة. لا أتوقف عن اكتشافاتي. هل يخطر لمن يراني من بعيد أقرأ وأدون الملاحظات وتعبيري الجدي على وجهي أنني أقرأ ما أقرأ؟. ما إن يقترب مني طالبٌ في المكتبة حتى يختفي الكتاب السري تحت الكتاب المعلن. ألبي طلبه وأعود إلى قراءتي. كلما أتى إلى المقتنيات جديدٌ مما أعده اختصاصي تتكرر الحكاية. بمرور السنوات وتراكم القراءات صرت خبيرة في كتب الباه. خبيرة سرية طبعاً.

اكتملت الحكاية عندما جاء إلي مدير المكتبة يتدور وابتسامته تسبقه: تعد المكتبة الوطنية معرضاً عنوانه (جهنم الكتب) تلك التي توضع على رفوف خاصة في المكتبة لتبقى بعيداً عن العيون، ترافقه ندوة عن الأدب الإيروتيكي في العالم. ما رأيكِ؟. يبحثون عمن يكتب دراسة عن الكتب الجنسية العربية القديمة. ما رأيكِ؟. اقترحت عليهم اسمكِ. ما رأيك؟. ينتظرون موافقتك كي يبحثوا معك التفاصيل، ما رأيكِ؟.

رأيي؟.

شكرته على ثقته، بكثير من الحذر. كانت الحكاية لعبة سرية، أو نصف علنية. يبدو أنها تتحول إلى اختصاص أكاديمي. تصورت نفسي أقرأ فقرة من فقراتي المفضلة في أحد تلك الكتب بصوت عال أمام جمع من الباحثين. سأتحول إلى باحثة مختصة في علم الباه؟، في الباهولوجيا؟، بشرط ألا أضحك. هل في الأمر شيء من الكوميديا؟.

– ستعقد الندوة في الولايات المتحدة. ما رأيكِ؟. ألم أقل لك إنها تنظم بالمشاركة مع جامعة نيويورك حيث سينتقل المعرض بعد انتهاء مدته في باريس؟. تعرفين أن الأميركان صاروا يهتمون بكل ما هو عربي ومسلم بعد ١١ سبتمبر؟. ما رأيكِ؟.

رأيي في اهتمامهم الجديد؟، أو في ١١ سبتمبر؟. لم أقل شيئاً.

قد أجد نقط تلاق مع الأميركان إذا شرعوا في الاهتمام بعلوم الباه العربية.

ربما كان المدير الخجول يظن أنه سيجد بعيداً عن المكتبة نقاط

تلاق معي لا يجرؤ حتى على التلميح إليها هنا.

وجه المدير لا يوحي بكثير من الخفة. لِمَ ينفعلُ إذن وكأنه يقدم لي عرضاً مشبوهاً؟. أهز رأسي موافقة. كيف لا أفعل وهو يتحدث وكأنه يطلب مني أن أكتب دراسة عن قراءات القرآن السبع؟. بالجدية المتواطئة نفسها يعطيني اسم المسؤول. تتصلين به وتتفقين معه على التفاصيل. ما رأيك؟.

القراءة السرية صارت اختصاصاً علمياً. عاشت التطورات الاجتماعية التي ستلغي المحظورات فعلاً وقولاً وقراءة وكتابة وموضوعات ندوات.

قراءاتي السرية تجعلني أعتقد أن العرب هم الأمة الوحيدة في العالم التي تعدّ الجنس نعمةً، وتشكر الله على هذه المتعة. ألا يستهل الشيخ الإمام العلامة الهمام سيدي محمد النفزاوي، رحمه الله ورضي عنه، [روضَه العاطر في نزهة الخاطر] **بحمد الله الذي جعل اللذة الكبرى للرجال في فروج النساء، وجعلها للنساء في أيور الرجال، فلا يرتاح الفرج ولا يهدأ ولا يقر له قرار إلا إذا دخله الأير، والأير إلا بالفرج..؟.**

ألم ير المؤلفون العرب أن من فوائد النكاح، إضافة إلى كثرة النسل وحفظ الوجود، الاطلاع على بعض نعَم الآخرة، لأنه ينبه على اللذات الموعودة في الجنان، إذ إن الترغيب في لذة لا تُعرف لا ينفع؟.

نذوق في الدنيا بعض ما سنعيشه مكافأةً في الجنة؟. هذا ما يسمونه في الاقتصاد: حوافز الإنتاج، ورائحة الجنس هي الجزرة

الجائزة التي تقودني في هذه الدنيا من أنفي لأعمل ما يوصلني إلى عطر الجنة. **هناك حيث الذكر لا يمل، والفرج لا يخفى، والشهوة لا تنقطع. في شهوة النكاح حكمةٌ هي ما فيها من اللذة لو دامت، وهي منبهةٌ على اللذات الموعود بها في الجنان، ليكون ذلك داعياً إلى طلبها حتى ينالها. فانظرْ إلى النعمة الإلهية كيف أوجد من شهوة واحدة حياتين ظاهرةً وباطنةً: حياة المرء ببقاء نسله، والحياة الباطنية هي الحياة الأخروية. فإن هذه اللذة المنصرمة تحرك اللذة في الرغبة الكاملة الدائمة.**

حتى عندما يعجز الجسد عن تلبية الرغبات يتفنن العرب في التحايل عليه للوصول إلى نعيمها. ليس فقط عن طريق المقويات والمنشطات، وحديثها طويل ومتشعب، بل بحيل أكثر تقنية. **فالخليفة المتوكل مثلاً: كان يحب كثرة الجماع، وضعف عن الحركة، فَجُعل له حوض ومُلىء من الزئبق، وبُسطت عليه المفرش، فكان يجامع عليه، وكان الزئبق يحركه من دون أن يتحرك.**

لو رأيت المفكر الآن فسأقول له: إنني سأبدأ الدراسة بهذه الفكرة. هي الأساس الذي سأعتمد عليه في شرح الأدب الجنسي العربي.

لماذا تعود إلي هذه الأيام صورة «المفكر» مختلطة بالنصوص القديمة؟.

منذ أن بدأت كتابة الدراسة انفجر القرار في داخلي مثل قنبلة: عرفت أنني سأفعل ما أجّلتُ سنوات طويلة. عرفت أنني سأعلن ما راوغت طويلاً كي لا أعلن. ما تحايلت على نفسي كي يبقى فيّ.

عرفت أن علي أن أعلن حياتي الموازية. أن أُخرِج إلى النور كومة أسراري الصغيرة. أن أمزق الستار الأخير عن المشهد الذي جاهدتُ طويلاً لإخفائه.

عرفت أن علي أن أقوم بما أجّلتُه: أن أستحضر المفكر بعد غياب. أن أكتبه إلى جانب أولئك المؤلفين العرب الذين كنا نحبهم معاً.

منذ أن بدأت كتابة الدراسة انفجر القرار في داخلي وكأنّ المفكر يمسك بيدي يجبرني على فعل ما لم أجرؤْ يوماً على فعله. يجبرني على أن أقول عالياً ما تعودت أن أحتفظ به لنفسي. يجبرني على أن أكتب حكايتي السرية معه.

كل من التقيت به في مجتمع التقية يحذرني من موضوع الدراسة. لماذا؟. الأفكار ليست هي السبب. يمكنني أن أكتب ما أشاء، المشكلة هي الكلمات الكبيرة التي يجب أن تبقى سرية. وأول ما يخطر لهم طبعاً هو الرقابة، وكأنها متفرغة لقص كل كلمة جنسية تُكتب. يبدو أنهم لا يتابعون ما ينشر الآن في العالم العربي. كأنهم لم يكتشفوا بعدُ أنه لم يبق من الثلاثي المحرم إلا اثنان: الدين والسياسة المباشرة بالأسماء الصريحة. سقط الجنس من منخل الرقابة، أو لنقل: إنها وسعت فتحاته.

عندما قابلت منذ أيام سحر، الباحثة في جامعة باريسية، بادرتني مباشرة، من دون تمهيد:

- هل صحيح أنك تعملين على كتاب عن الحب عند العرب. هناك كُتب كثيرة عن هذا الموضوع. هل قرأت أندريه ميكيل؟، هل قرأت عن الحب العذري؟، عن قيس وليلى؟، عن..

قاطعت حماستها ببرود متعمد:

- أكتب عن الجنس عند العرب.

سكتت برهة مترددة قبل أن تفتح فمها:

- آه. هل وجدت ناشراً؟.
- لم أبحث. أكتب دراسة للمشاركة في ندوة عن الموضوع.
- أنت مخطئة. عليك أن تبحثي عن ناشر منذ الآن. هذه موضوعات تبيع.
- لم أختر الموضوع. اقتُرح علي ووافقت. دراسة أكاديمية.
- أكاديمية؟.
- نعم. عن كتب الجنس العربية القديمة.
- قرأت أشياء منها مترجمة إلى الفرنسية. جميلة جداً.
- أكتب بالعربية معتمدة على النصوص الأصلية.
- بالعربية؟. المشكلة في هذه الحالة هي الرقابة. ليست هناك أية مشكلة بلغة أجنبية في استعمال أية كلمة مباشرة. بالعربية الأمر مختلف.
- النصوص موجودة ومنشورة وتباع في المكتبات. لا أخترع شيئاً. قلت لك: إنها دراسة. أنا لست الأولى.
- وإذا مُنعت؟.

أجبت هازئة:

- سأصبح مشهورة.

- كل الكتّاب الآن يحلمون بمنع كتبهم ليشتهروا.

ولم لا إذا كانت الرقابة على هذا المستوى من الغباء؟.

٤

باب الماء

مسكونةً بالبحث الذي أكتبه، وسعيدةً بعلنيته، أتحدث عنه بإسهاب أمام الجميع بكثير من المتعة. حالة من الفرح البدائي تغلفني. طلبت إجازة من عملي في المكتبة. حملت كتبي وهربت من باريس إلى تونس. يجب أن أكون في هذا العالم كي أبدأ العمل. حاجة جسدية إلى هذا المحيط العربي. إلى اللغة والناس. إلى الشوارع والحدائق والمذاقات والروائح والأضواء والأصوات. إلى الوجوه والأجساد. بحاجة إلى الشمس والبحر. بحاجة إلى حمام السوق والطيّابة والماء المحرق.

صحيح، لماذا يقترن الحمام في رأسي بالجنس؟. هل هي السخونة التي تفح من مسامي؟. هل هي ضربات الدم في صدغي تبشر بانفجار وشيك؟. أخرج من القاعة الساخنة ويطالعني جسدي متورداً، أصير جميلة بعد الحمام وبعد الحب. كان المفكر يعيدها عليّ في كل مرة.

مثل الجنيد، الذي كان يقول: **أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت**، لدي حاجة عضوية للماء والمني والكلمات. ثلاثة هي عناصري الأولية. ثلاثة لا يمكنني أن أعيش من دونها. ثلاثة تنظم خربطتي وتساعدني على الحياة. عندما أفتح عيني في الصباح مُخَلَّعَةً مثل دمية متحركة، لا أرى ولا أسمع ولا أفهم. أتوجه إلى الحمام. أقف تحت رذاذ الدوش وتبدأ أجزائي في التلملم تدريجياً. يجمعني الماء كساحر ينظم خيوطي ويجلو جوهري. أستعيد حواسي وقدراتي كائناً مرناً مستعداً للحياة.

على مصطبة الحمام أتمدد مصلوبة. تتخايل لي أجساد الأخريات في الضباب الساخن. عيناي مفتوحتان. أراقب البخار يتوضع قطرات تتحبحب على السقف المقبب تنتظر السقوط. علمونا في المدرسة أن نيوتن اكتشف الجاذبية الأرضية وهو يرى التفاحة تسقط. ماذا سأكتشف أنا؟.

أكتشفُ جاذبية المفكر؟. هذه ليست اكتشافاً. عرفتها وعشتها.

لا يمكنني بعد كل هذه الساعات في الحمام إلا أن أفكر فيه وأن يخطر لي أنني جاهزة للحب، جاهزة للمفكر.

كان يقول لي: نلتقي غداً. هيئي نفسك. وأجيب: تعلم أني جاهزة لك دائماً.

أنا أنظف امرأة في العالم، لا حباً في النظافة بل ولعاً بالماء، لذا لن أموت إلا في مدينة عربية على البحر. الماء هو عنصري الأول. قبل أن أتعلمها من الكتب كنت أطبقها عملياً. قبل أن أقرأ ما بدأ به **الرسول حديثه لابنته فاطمة قبل أن تزف لعلي بن أبي طالب:**

اغتسلي بالماء أبداً حتى إذا نظر إليك زوجك يفرح بك. كنت أغتسل بالماء كي أنظر إليّ وأفرح بنفسي.

لم يبعد كثيراً الزمن الذي كان فيه الحمام هو المكان الذي تمتحن فيه أم العريس المرشحات للزواج. أي مكان أفضل من الحمام لرؤية امرأة على حقيقتها؟. لا بد أنها كانت وسيلة ناجعة؛ لا غش ولا خداع. العروس كحواء في الجنة. على حقيقتها.

أنقلب على ظهري وتتابع الطيابة صامتة فرك جلدي بقوة. سألتني زميلتها في البداية إن كنت أفهم العربية. هل أبدو مستشرقة إلى هذا الحد؟.

هنا في هذا الحمام البلدي لا مكان لتزييف الفولكلور. لا وسائد مخملية ولا عطور شرقية ولا رائحة التبغ. ليس هناك إلا النساء والبلاط والماء، وتلك الرائحة التي أميزها من بين ألف. تأتي إلي من دمشق مدينة طفولتي. لم أذهب إلى حمام النسوان في تلك السنوات إلا مرات قليلة مع جارتنا الشابة، لأن أمي كانت بعيدة عن هذا النوع من الطقوس. كان هناك البخار والبرتقال وعروسة الزيت والزعتر. حمام عائلي للنساء والأطفال كما نراه في بعض الأفلام العربية. الآن لا زعتر ولا برتقال. الرائحة وحدها معششة في المكان، ولا أريد أن أستعيد أي ماض إلا في ذاكرتي.

تمددت على ظهري وبدأت الطيابة تفرك جسدي بالليفة الخشنة. كانت قد نقعت ساقيَّ في سطل ماء في الصالة الساخنة، قبل أن تأتي لتبحث عني. تمددتُ على بطني، وضعيتي المفضلة. تفرك بقوة وأتابع حركة يديها على جسدي. من باطن القدمين ترتفع شيئاً فشيئاً. لمسة خفيفة من أصابع المفكر تتنقل بين غمازتيَّ أسفل

الظهر كانت كافية كي تنبض كل مراكز لذتي. هذا زمن مضى. تفرك بقوة وأغمض عيني على أجساد النساء العارية تتحرك في أنحاء القاعة المتوسطة. الأم وبناتها الصبايا الثلاث. العجوز وأمها. الأجنبية بثدييها الصغيرين وحيدة مثلي.

الحمّام عندي مقترن باللذة، بالجنس. ليس هو العري بقدر ما هي الحكايات التي تربيت عليها.

٥

باب الحكايات

حكايات. حكايات. حكايات نساء سمعت بعضها من قبلُ ونسيتها. من تحب ومن تغار. ومن لبست ومن خلعت. من نامت ومن صحت. من طلقت ومن تزوجت. من عشقت ومن خانت. نميمة على جميع الجبهات، وعلاقات متشابكة لا يحلها إلا الحلاّل. حكايات نساء لا تشابهها إلا حكايات الرجال، وأنا أهتم بالطرفين. حكايات تتشابه في كل مدينة عربية. حكايات لا يمكن أن تخطر لك عندما تلتقي الناس عابراً في مجتمعات تربت على الازدواجية، وتعلمت بإتقان كيف تعيش الجنسَ، وغيرَ الجنس من موضوعات خطرة، تقيةً يوميةً.

هذا حمام شعبي في مدينة عربية. يأتي إليه الرجالُ في الصباح، والنساءُ بعد الظهر. أمس مع رجاء، في مركز العناية في الفندق الكبير كان الحمام مختلطاً. في قاعة الراحة في نهاية المطاف كنا وحدنا، فالزبائن قليلون في هذه الفترة من السنة. صحوت من تهويمي على دخول رجلين تمددا على الوسائد المخملية وسط

الديكور الشرقي الفاخر يدخنان ويتكلمان بصوت عال. نظرت إلى رجاء التي كانت تشرب الشاي بهدوء وتفاهمنا. اختصرتُ قيلولتي وهربنا معاً إلى رمل الشاطىء حيث لا صخب ولا دخان.

جارتنا في دمشق كانت تصحبني إلى السينما، كيلا تذهب وحدها. كنتُ الحل العملي الذي وجدته مع زوجها لتتمكن من الحركة بحرية محدودة في مدينة لا تعرف فيها أحداً. في عتمة صالة السينما أرى رأسها يتمايل بإيقاع على أنغام صوت فريد الأطرش يملأ وجهه الشاشةَ ودهشتي. كنت صغيرة لا أفهم كل هذا الانسجام المخطوف.

عندما حكيت يوماً لسليمى عن جارتنا الشابة قالت بجدية: من المؤكد أنها كانت تستخدمك لتغطية مواعيدها الغرامية.

صرختُ محتجة: لا، لا يمكنها.

قاطعتني: هل كنت تميزين في ظلام السينما من يجلس إلى جانبها من الناحية الأخرى؟.

كانت الجدية من ناحيتي هذه المرة: أنت لا تعرفين دمشق في تلك الأيام. كنت أرافقها إلى عرض الساعة الثالثة، لا ترين فيه إلا جموعاً من النساء مع أطفالهن الصغار. استنتاجاتك المغرضة تسقط وحدها كما ترين.

- لماذا تدافعين عنها؟. أريد أن أفهم. هل فكرت في قاطع التذاكر مثلاً؟، تجيب بابتسامة ضاحكة.

لم أكن أدافع عن الجارة الشابة. أنا المتأهبة المتحفزة في كل لحظة،

كنت أدافع عن الصور التي بقيت في رأسي. لم أكن أريد حتى لزلزال صغير من هذا النوع أن يهدم حكاياتي القديمة، أن يغير معانيها، في غفلة عني. كنت أدافع عن تاريخي الشخصي.

أعرف أنه في زمن آخر من طفولتي، عندما جاء من بعيد قريبنا خياط النسوان إلى بيتنا وفصل ثياباً لنا وللجارات جميعاً، لم يترك واحدة من شره، كما قالت أختي. الجارة الشابة نفسها كانت واحدة ممن غازلهن. على الخفيف فقط. يقيس عليها القماش ويتحسس تفاصيل جسدها بثقة داعرة وهي تحمر وتصفر، تتلون وتتلوى، تبتسم بارتباك ولا تقول شيئاً. كنت أتفرج عليهما متعجلةً دوري في قياس ثوبي الجديد، وأسمع أختي المراهقة تصرخ بالنيابة عن الجارة: عمو بَسْ، يكفي، عمو بَسْ. وعمو الخياط الشاطر لا يتوقف عن العمل.

كنت صغيرة عندما جاء عمو لزيارتنا. كانت الحكايات تدور أمامي ولم أكن أفهم الكثير. أعرف فقط أن أبي، بعد مناقشة طويلة مع أمي وراء باب غرفتهما المغلق، أقنع القريب باختصار زيارته والعودة إلى زوجته وأولاده في مدينته البعيدة. كانت أختي المراهقة المحرك الأول في هذا العقاب. عرفتُ بعدها بسنوات أنها اكتشفتْ بالمصادفة حكاية لقاءات سرية، أبعدَ من اللمسات والقبلات وتغير الألوان، بين الخياط الماهر وجارة عانس نصف عمر نصف متعلمة، متفرغة تماماً لتربية أولاد أخيها. خافتْ أختي من الفضيحة وأخبرتْ أمي التي خافت بدورها واخترعتْ لأبي حكاية مختصرة، بريئة ومقنعة كي يبعد الضيف الخطير. اقتنع طبعاً، كالعادة.

بعدها بسنوات، وكانت هذه الجارة قد تجاوزت الأربعين، هربتْ

مع سائق سيارة يعمل على طريق بيروت، أصغر منها بكثير. كانت قد سافرت معه، مرافقةً الأولاد، عدة مرات لزيارة فرع العائلة في لبنان. أحبته وأحبها وقررا الزواج. كانت تعرف جيداً أن عائلتها لن توافق أبداً، وستعد الفكرة وحدها جريمة لا تغتفر. ثم من سيربي الأطفال، يا حرام، إذا تزوجت العمة وأمهم مريضة، لا تكاد تترك الفراش؟.

العائلة التقليدية الغنية الآتية من الريف عتمت على الحكاية واكتفت بإلغاء وجود العاشقة الهاربة وتناست حتى اسمها. الأخبار تُتناقل بالوشوشة بين الجيران، وحتى في بيتنا. كان أبي يعيد، وهو يهز رأسه: ابتسام. من كان يصدق؟. تكتفي أمي بالنظر إلينا نحن الصغار، فيفهم ويسكت. يكرر هزة الرأس بالعاً كلماته. كنتُ صغيرة أيامها ونسيتها خلال كل تلك السنوات. أحاول الآن استرجاع صورتها: سمراء قصيرة ممتلئة بشعر ناعم مقصوص وثياب تميل إلى البساطة. كان هناك إجماع من الجنسين على أنها عاقلة وشاطرة وذكية وست بيت ماهرة، ولكنها قليلة الحظ. تُلوى الشفاه بحسرة مع الجملة الأخيرة. أتذكر أنها كانت لطيفة معنا نحن الصغار، نحبها لأنها تقبّلنا وتوزع علينا الخرجية في كل مرة نراها فيها.

كيف انتهت حكايتها؟. لا أعرف. النهاية ليست في هربها مع حبيبها الشاب. هذه هي البداية.

عندما أسافر إلى دمشق في المرة القادمة سأسأل أختي عن التفاصيل.

على درجات الحديقة في بيت رجاء، أمام شجرة النارنج والورود

الحمر المتفتحة عالياً نتبادل الحكايات، وتختلط الأزمنة والأمكنة والشخصيات. زوجها غائب في مهمة تدوم أسبوعاً، والولدان في رحلة، وهي في عطلة مدرسية، شبه متفرغة لي.

كان زوجها زميلنا في جامعة دمشق. أحبها وأحبته وتزوجا بعد التخرج مباشرة. مع رجاء يسير كل شيء ببساطة، ومعي لا بد من أن تتنافر الأمور. كنا مختلفتين وكان الآخرون يدهشون لمتانة صداقتنا. ترى رجاء الوجه المشرق في الناس وفي العالم، ولم أكن أرى إلا الوجه المعتم. كنتُ الضاحكة الصاخبة الملعونة، وكانت اللطيفة الصامتة العاقلة. كانت متوافقة مع العالم، وكنتُ متوترة ضده. نثرثر كثيراً، ولكننا لم نتبادل الأسرار يوماً. نكتفي من حياتنا الحميمة بمظاهرها. الباقي نحزره حزراً. تعرف تفاصيل حياتي المعلنة فقط وأجهل حياتها السرية. نقطة. انتهى.

رائحة الياسمين والعتمة الخفيفة، القطة السوداء على السور المقابل تسمع كلماتنا الخافتة وتنظر إلينا معاً نظرة ثابتة.

- وميساء؟، ما أخبارها؟، أسألُ.

- رأيتها في الصيف الماضي عندما كنت في دمشق. مات زوجها منذ شهور، وولداها يدرسان في الولايات المتحدة. أظن أنهما سيستقران هناك.

- تعيش وحدها؟.

- أمها معها.

أم ميساء كانت مأساتها، أو هكذا كنت أظن. أتذكر دموعها

مختلطةً بدموعي يوم عرسها. كنا معاً في المدرسة الثانوية. أعيش معها يوماً بيوم قصة حبها لقريب لها في بيروت، في مثل عمرها، طالب جامعة طفران معتر، كما تصفه أمها التي تريد إجبارها على الزواج من المهندس الكبير، ابن العائلة، الذي يكبرها بأكثر من خمسة عشر عاماً. أم ميساء كانت قوية، وميساء ضعيفة مترددة. ترفض الزواج بهمس في الصباح، وتستقبل العريس بابتسامة في المساء. تحكي لي وجعها وكل منا تحتضن حقيبتها المدرسية عائدتيْن إلى البيت. تحكي لي كيف تنام مع حبيبها، وتفهمني في الوقت نفسه أنها ليست مجنونة وأنها تحافظ على (خط الرجعة). تحكي لي عن ثقل دم خطيبها الذي لم يحاول حتى أن يلمس يدها. تحكي لي عن بخله الأسطوري. تحكي لي، وتكبر كراهيتي لأمها. بعد نتائج البكالوريا بأسابيع تزوجت ميساء. حضرتُ عرسها في كنيسة الحي. ودعتني وعانقتني، وبكينا معاً واختلطت دموعنا، وابتسامة أمها تعلن الانتصار.

زرتها بعد فترة من عودتها من شهر العسل. كانت تنتظر طفلها الأول. تتلمس بطنها، الذي لم يكبر بعد، بحركة دائرية راضية وهي تتحدث عن البيت الجديد والأثاث الفخم وعائلة زوجها والهدايا الثمينة. تبخرت دموع الحب ووجه العروس كان مضيئاً بالزهو.

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أفهم كيف استطاعت أن تخون دموعها. كنت أحاول أن أتعلم ألا أخون دموعي أنا أيضاً. كنت أحاول أن أنسى كلماتها القديمة وحبيبها وطموحاتها، وأعاهد نفسي ألا أسقط مثلها أبداً.

خط الرجعة؟. مقولة ميساء؟. سمعتها بعدها من كثيرات، هناك في

دمشق، ثم هنا في باريس. كلهن حريصات على خط الرجعة. أنا لم أكن أفهم أين يقع هذا الخط؟، أو على الأصح أرفض أن أفهم.

سمعتها هناك في حكايات صديقة لأختي اسمها هيام. مراهقة، نحيلة، طويلة، بشعر أشقر طبيعي طويل وعينين واسعتين. كان لها حبيب يكبرها بعشرة أعوام على الأقل. تقول لأمها إنها تدرس مع أختي عندنا في البيت، وتأتي فعلاً. تبقى أقل من ربع ساعة ثم يمر حبيبها محمد بسيارته ليأخذها إلى بيته. تفعل معه كل ما يمكن أن يخطر على البال، مع الحفاظ على خط الرجعة. الطريف أنها كانت تفخر بعلاقتها الصريحة مع أمها وبأنها تخبرها بكل ما يحدث معها. عندما استنكرتُ يوماً: كل شيء؟، تلعثمت: ما عدا حكاية محمد. كنا نقرأ معها رسائله إليها ونفككها كنص أدبي. ظل متيماً بها سنوات قبل أن يخطبها رسمياً ويتزوجها وتغيب أخبارها عني وعن أختي.

سمعت عن خط الرجعة هنا في حكاية إحدى جاراتي في المدينة الجامعية. لبنانية تعد أطروحة دكتوراه مع أحد المستشرقين عن شاعر لبناني. عندما كان صاحبها الفنان المصري المعروف يزور باريس تحزم عدتها وتعيش معه في فندقه. حكايتهما معروفة للقاصي والداني، ومن بينهما، مع ذلك كانت تناقشني بإصرار مؤكدة حفاظها على خط الرجعة إياه، لأنها لا تريد أن تلوث سمعة عائلتها وشقيقيها الشابين، لا أحد يعرف ما يخفي المستقبل من مفاجآت. أنت تخاطرين بعيش علاقة معلنة أمام الناس. ماذا ستفعلين لو لم تنته علاقتك هذه بالزواج؟، تسألني محذرةً من تهوري، وأنا أتسلى بالنظر إلى اللوحة العجيبة التي رسمها لها حبيبها تتصدر غرفتها المرتبة. هل كان ليرسمها هكذا لو تجاوزت

خط الرجعة؟. كنت أسأل نفسي صامتة وأقدّر أنني قد أعرف الجواب.

خط الرجعة كان في مواجهتي في أغلب حكايات البنات حولي ممن اهترأت حدودهن على خطوط الروحة. تتحدث النساء بدهشة مريرة عن ازدواجية الرجال العرب في علاقاتهم الحميمة، ويتحدث الرجال بحسرة عن فصامية النساء. هل يمكن لنا ألا نُبتلى بهذا جميعاً؟. هل هو حتمية تاريخية في مجتمعات مثل مجتمعاتنا؟.

تحاشيت رؤية ميساء. كنت أتعلل بالدراسة والامتحانات. سافرتُ وغابتْ عني. أسمع أخبارها أحياناً من الصديقات. أنجبت صبيين ولم تنجب البنات، وعاشت في التبات والنبات.

- أظن أن أمها مريضة؟، سألتُ.

- مريضة جداً. ميساء تُعنى بها. أظن أنها لن تعيش طويلاً.

- ستبقى وحدها؟.

هزت رجاء كتفيها وصمتت.

عندما أزور دمشق في المرة القادمة قد أتصل بميساء. قد أراها. قد أحاول أن أفهم ما استعصى عليّ. التفسير واضح، تُردد رجاء بهدوء محاولة أن تجد لميساء أسباباً تخفيفية، وأصر أنا على ألا أجد أي تسويغ لتنازلها، حتى بعد مرور كل هذه السنوات. أعرف جيداً أن الإنسان حيوان مسوِّغ، ولكنني أعرف أيضاً أن الزمن لا يغيِّر شيئاً، بل على العكس، إنه يفضح أكثرَ معنى مواقفنا وقراراتنا واختياراتنا.

عن الحكايات أبحث عند صديقات رجاء. ولا بد لكل حديث بيننا من أن يتسلل نحو الوجهة التي تهمني. الحكايات لا تنتهي، وأنا كنار جهنم أطالب دائماً بالمزيد.

أمس مع رجاء، ونحن نتمشى على شاطىء البحر، كانت صديقتها هانية أستاذة علم الاجتماع تحكي لنا عن كتاب تعده عن رسائل متبادلة بين والديها. عن قصة الحب التي لم تنتهِ إلا بوفاة الأم، بعد ثلاثين عاماً من تفاهم نادر. لم يعشْ الأب بعدها طويلاً. حكينا عن الحب والزواج والأولاد والتحمل والخيانة والطلاق. ثرثرة حميمية معهودة.

بعد صمت لم نكن نسمع فيه حتى وقع أقدامنا جاء صوت هانية: مرةً كنت أريد السفر من أجل عملي ولم يقبل زوجي الفكرة إطلاقاً. غضبتُ. قررت أن أطلب الطلاق بعد ولدين وعشرة أعوام من الحياة المشتركة. ذهبت إلى عمتي وفشّيت همّي، حكيت لها كل شيء وأخبرتها بقراري. نصحتني: يا بنتي اسمعيني. كبري عقلك واخزي الشيطان، روحي إلى الحمام وتجملي ثم اذهبي للقاء زوجك ونامي معه بشوق وكأنك ترينه للمرة الأولى. في اليوم التالي ستتحدثين معه عن سفرك وسيقبل.

سكتتْ هانية.

– بعدين؟، أستحثها.

– سافرتُ. نفذت نصيحة عمتي، ووافق وسافرتُ. قالتها باختصار وتعبير مبهم على وجهها.

لم تقل أي واحدة منا شيئاً. ما الحكايات المشابهة التي كنا نستعيدها بصمت؟. ما القرارات الصغيرة والكبيرة التي استدرجنا

إليها الآخرين في السرير؟. ما الخلافات المستعصية التي وجدت حلها، المؤقت ربما، في هذا النوع من وسائل الإقناع؟.

لم نخترع شيئاً. هناك كثير من هذه المواقف في كتب شيوخي. **قال القالي في أماليه: وقع بين رجل وامرأته شر فتهاجرا أياماً، ثم وثب عليها، فأخذ برجليها، فلما فرغ قالت: أخزاك الله، كلما وقع بيني وبينك شر جئتني بشفيع لا أستطيع رده. وفي حكاية أخرى أن امرأة قالت لزوجها، مترحمةً على أيام قاضيه العادل ولياليه: لقد مات الذي كان يصلح بيننا.**

قالت رجاء: تريدين حكايات عشق؟، سأصحبك لرؤية نادية. حكايات البلد كلها عندها. سنبدأ بحكايتها.

قلت: أريد حكايات جنس.

نحن نستعمل كلمة حب، نادراً ما نستخدم كلمة جنس. هل هناك فرق؟، أجابت رجاء وهي تنظر إليّ ماكرةً.

في بيتها كانت نادية تنتظرنا. حكت لي رجاء كثيراً عنها. فتحت لنا الباب شبه عارية. باريو خفيف ملون معقود على صدرها منسدل حتى أعلى ساقيها فقط. من الواضح أنها لا تخجل من جسدها. لم يكن فيه ما يُخجل. هي جميلة بهذه الوردة الحمراء على طرف شعرها كفتيات الجُزُر. تحكي وتتحرك بحرية. هي جميلة بهذه الحرية. ما إن ندخل حتى يرن صوت الهاتف وتنقض على السماعة. حبيبها يتصل بها من فرنسا. تغمز لنا بعينها وتتابع الحديث ساخناً ساخناً. الحبيب أكبر منها بكثير. زيته خالص، تهمس رجاء وهي تضحك. أحببت نادية. أحببت حركاتها

الواثقة. تقرأ لنا مقاطع ساخنة من يومياتها عن لقاءاتهما. رجاء تغمزني: لا تصدقي إنها استيهاماتها. رأيته، عجوز جداً، يتحرك بصعوبة. ولكنني أريد أن أصدق. تصرح نادية بعمرها وبعمر حبيبها، وتضحك بسعادة. هل يمكن أن تعيش حكاية حب في هذا العمر بعد كل هذه السنوات من الترمل؟. تغادر الغرفة لتأتي لنا بالشاي وقطع الشوكولاته. أنظر إليها ويخطر لي أن أي رجل يلتقي بها لا يمكن له إلا أن يعشقها.

أي رجل؟، أو أي رجل من جيلها؟، تتملعن رجاء.

- تريدين آخر حكاية؟. تسأل نادية.

- انتبهي، تعرف حكايات البلد كلها وحتى الشائعات. يجب أن تكون حكايتك طازجة فعلاً. تحذرها رجاء ضاحكة.

- أنا واثقة من أنك لم تسمعي بها. الممثلة الشابة ذهبت للدراسة في باريس، تعرفت إلى منتج فرنسي في سن أبيها، غني جداً ومتنفذ جداً، متزوج وأولاده أكبر منها. عشقها. سمراء ناعمة ملتهبة. مات بها. جننته. وعدها بإنتاج فيلم كبير تكون بطلته ونفذ وعده. تعرفين هذا الجيل المستعجل. هي تطمح إلى أن تكون ممثلة كبيرة، وهو يصبو إلى التنعم بطراوة عودها. كان يتبعها إلى تونس في كل مرة تأتي فيها لزيارة أهلها. في المرة الأخيرة جاء إلى هنا وأصيب بسكتة قلبية.

- وبعدين؟، أستحثها. أعرف أن الحكاية لا يمكن أن تنتهي هنا.

- مات. كان معها. كان نائماً معها. مات فوقها. بعضهم سأل إن كان قد مات قبل أن ينتهي أم بعدُ؟. لم يعرفوا الجواب.

- وبعدين؟.

- وبعدين؟، وبعدين؟. ماذا تريدين أكثر؟. فضيحة. قلت لك: البلد كلها تحكي عنها.

لم أسمع بالفضيحة. رأيت الفيلم. كانت المحروسة الصغيرة بطلته، وأثنى النقاد على موهبتها الواعدة وحضورها المتوهج. ماذا يهمها؟. الفضيحة ستذوب مثل فص الملح ويبقى الفيلم والطريق الذي انفتح واسعاً منذ البداية. جيل عملي في عصر عملي. ثم إن للفضيحة عطراً يفتح شهية المخيلة، ومغناطيساً يجذب القلوب. أعرف هذا جيداً.

«فضيحة بجلاجل» يقولون باللهجة المصرية، فضيحة بأجراس تعلقها على قفاك وتصرع بدقاتها الدنيا. أستمع إلى نادية ويخطر لي أن قفا الممثلة سكسي، والأجراس المجرورة وراءها لا يمكن إلا تجلب إليها إلا المزيد من الأبصار والأسماع.

تخطر لي تلك الجملة المجلجلة التي أعلنها كاتب فرنسي:

لا جنس في مصر!.

لا جنس في المجتمع الإسلامي!.

أطلقها الروائي الشاب في روايته التي حققت منذ عامين نجاحاً لا بأس به في فرنسا، بل وحصلت على جائزة أدبية. يسافر السارد إلى العاصمة العربية مدعواً من السفارة الفرنسية للمشاركة في معرض الكتاب في القاهرة. ممتلئاً باستيهاماته الاستشراقية، يرحل على خطى فلوبير باحثاً عن نسائه. لن يجد مراده طبعاً. اختفت

الفتيات النوبيات اللواتي ضاجعهن الروائي في القرن التاسع عشر متحليات بعقود من قطع الذهب تصل إلى أفخاذهن، وعلى بطونهن السود أحزمة من اللآليء الملونة. حلت محلهن المحجبات والمنقبات. يُصدم المسافر لأن شرق فلوبير عام [١٨٤٧] تبخر وتلاشى. لم يبقَ إلا [١١] سبتمبر وزمن الجهاد الإسلامي. الوحيدة التي ترمي نفسها على الكاتب في آخر الرواية ليست مصرية بل مغربية فرانكوفونية انتهازية تعمل في السفارة الفرنسية. سيرفض بإصرار عرض أجمل امرأة في القاهرة، كما يصفها الجميع، عداه، إخلاصاً للحبيبة التي تنتظره في باريس. بعد مغامراته الخائبة مع زميل أكثر خيبة، ومناقشاته المطوّلة خلال أسبوع مع الفرنسيين والمتفرنسين المحيطين به، عن الإسلام والمسلمين والمسلمات، سيهبط الاستنتاج المنطقي كالوحي على الروائي الشاب: الإسلام والجنس لا يجتمعان. حقيقة أزلية كدوران الأرض اكتشفها الروائي الفرنسي خلال تلك الأيام القليلة. لا جنس في المجتمع الإسلامي، على وزن الجملة الشهيرة: لا جنس في الاتحاد السوفياتي. الأولى يعلنها الكاتب العائد بخفي حنين في رواية، والثانية تقولها الشيوعية المتزمتة في مقابلة تلفزيونية. وفي الحالتين عاشت البروباغندا العمياء، جاهلةً أو متجاهلة.

- لماذا لم تأت سليمى معكما؟، تسأل نادية.

- مشغولة، عندها ضيوف. تكذب رجاء بلهجة محايدة لا تقنع أحداً.

نادية وسليمى لا تتفاهمان. أنا أحبهما معاً، وخلافاتهما المحلية لا تعنيني.

أحب سليمى اللبنانية التي تزوجت ديبلوماسياً مغربياً وتعيش معه

الآن في تونس. هذه أفضال باريس. أتاحت للمشرق والمغرب أن يلتقيا. إذا تعرفت إلى (كوبل) مشرقي مغربي فهناك احتمال كبير أنهما تعارفا في باريس.

أحب سليمى وأتلذذ دائماً بلقائها والإصغاء إلى حكاياتها العربية والفرنسية. عن حبيبها الأول والثاني والثالث و .. و. عن أحبائها الذين لا تعرف عددهم، ونسيت نصف أسمائهم. هي حكايات ما قبل الزواج طبعاً. بعد الزواج؟. يفرض المجتمع أن تبقى الصفحة بيضاء لا تسودها إلا خربشات الزوج.

- جاء لزيارتي في المدينة الجامعية، تروي سليمى، كان لبنانياً مثلي، طويلاً جميلاً أبيضاني اللون مع شعر أسود. كل يوم مع بنت، يغار منه الرجال وتعجب به النساء. يحضّر دكتوراه في السوربون، لم يحصل عليها طبعاً. هذا يعني أنه لم يكن يفعل شيئاً، شبه متفرغ لفتوحاته الجنسية.

التقيته مرة ومرتين مع الآخرين. رآني مع حبيب فلسطيني في تلك الفترة، ومع ذلك غازلني بظرافة. كان يسكن مثلي في المدينة الجامعية وجاء لزيارتي. كانت الدنيا صيفاً وحرارة باريس على أشدها. لم يسخن بعدُ على مقعده حين قال: الدنيا حر، وخلع قميصه. قال: الدنيا حر، وخلع بنطلونه. يحكي حكايات عن صديقته الأرجنتينية التي تغار عليه وتراقبه وتعكر صفو حياته. أتابعه بحياد ظاهري. أتحدث معه وأتجاوب صوتياً مع حكاياته وأنا أتفرج على وصلة الستربتيز التي يقوم بها أمامي. تلبستني حالة من حب الاستطلاع لاكتشاف كيف يمكنه أن يتصرف؟ وماذا يمكنه أن يفعل؟. قال: الدنيا حر، وبقي بالكلسون الأبيض. أنا أتابع الحديث معه وكأنه يلبس (سموكنغ). في النهاية، قال: الدنيا حر

جداً، خلع كل شيء وبقي عارياً كما طلع من بطن أمه. الفرق أنه طلع من هناك صغيراً، وهو الآن رجل مكتمل الرجولة. تصوري.

أمسك بعضوه وقال لي: انظري، صاحبتي مجنونة، من غيرتها تضع علامة عليه بالقلم هنا وتعاينها عندما أعود، كي تتأكد أنها ما زالت في مكانها. كدت أقترح عليه أن يعطيها قلم كوبيا في المرة القادمة. لم أقل. أهز رأسي باهتمام وأنظر إلى موضع العلامة أتفحصها وأتظاهر بالدهشة. بقي عارياً كالدودة أكثر من عشرين دقيقة يتمخطر أمامي في غرفتي ويقف وراء نافذتي، ويتفقد الرسوم على حائطي، وأنا ولا كأنني هنا. أتفرج عليه بفضول بارد وأتابع الثرثرة العادية معه. في النهاية لبس ملابسه وهو يقول: أحس بنفسي سخيفاً. كدت أوافقه على رأيه. غادرني بقبلتين خفيفتين على الخدين، كعادة الأصدقاء، وكانت هذه آخر مرة يزورني فيها في غرفتي.

- بعدين؟، أسأل أنا كعادتي. أريد دائماً متابعة الحكايات أكثر.

- ولا قبلين. صرنا أصحاباً. تزوج وتزوجت. طلق وطلقت، وتزوج مرة ثانية وتزوجت مرة ثانية وسافرتُ. نلتقي بالمصادفة أحياناً عندما أزور باريس. يعرف زوجي الثاني. يستقبلني بالأحضان والقبلات. أصحاب.

- غير معقول!، أصحاب؟. بعد حكاية كهذه؟.

- ولم لا؟.

- هل تذكرتما الحكاية؟.

- مرة قال لي: هل تذكرين يوم زرتك في المدينة الجامعية وخلعتِ ملابسك؟. قلت له: لا يا روحي. أنا لم أخلع شيئاً. أنت خلعتَ كل شيء ثم لبستَ كل شيء وذهبت. قال: فعلتُ هذا؟، معناه أنني كنتُ مغفلاً. أجبت: هذا نفس ما قلتَه أنتَ وقتها.

- يختبر ذاكرتك، أو يريد إعادة كتابة التاريخ مزوراً؟. هل يتصور أن حادثة مثل هذه يمكن أن تنسى؟. مغفل فعلاً.

- الأحلى من هذا أنني حكيت الحكاية يومها لصديق مشترك، ضحك من قلبه وقال لي: هل تعرفين؟، كنت أغار من جماله ودون جوانيته. كل يوم مع بنت مختلفة، وكل واحدة أحلى من الثانية. كان يعقدني. الآن بتصرفك هذا أشعر بأنك قد انتقمتِ لي منه. نعم، هناك امرأة في العالم يمكن أن تقول له لا. صار مثلنا جميعاً.

- مغفل آخر. يبدو أنهم كثيرون على هذا المستوى.

- عندما يتعلق الأمر بالنساء يفقدون قدراتهم.

- كما نفقدها نحن عندما يتعلق الأمر بالرجال. أكمل أنا وتتخالط ضحكاتنا.

أنظر إلى سليمى الفنانة التي تضج رسومها حسية وألواناً صاخبة، مع نساء عاريات سمينات، بأثداء ثقيلة وأرداف أكثر ثقلاً، مخلوقات طافحة تفور منحنيات. أنظر إلى سليمى تتكلم ولا أرى إلا حلاوتها وضحكتها وخفة دمها وعدم اكتراثها بالصورة التي يمكن الآخرين أن يرسموها لها. ربما كنت أحبها لأنني ما كنت أملك شجاعتها، أنا بنت التقية. أنا التي أردت دائماً أن أرسم

صورتي الاجتماعية بالمليمتر. لم أحك يوماً عن حياتي السرية. عن حكاياتي الباطنية، لا شفوياً ولا تحريرياً.

لم أجرؤ أبداً.

أعرف الآن أن هذا لن يستمر طويلاً.

أبتسم لنفسي بشيء من الخبث وأنا أتابع الحديث.

٦

باب المدلكة وزوجها الزاني



عندما رأيتها للمرة الأولى في المركز لم أنتبه إلى حلاوة تقاطيعها. أوصلني إليها المسؤول عن الاستقبال في مركز الاستجمام المائي. معه لم تنظر إلي. مشت أمامي إلى غرفة التدليك بكثير من الانضباط. لم تلتفت إليّ إلا بعد أن أغلقت الباب. عندها فقط رأيتُ ابتسامتَها وسمعتُ كلمات ترحيبها. عربية؟، مرحباً بك. من أين؟. نادراً ما يأتينا سياح عرب إلى المركز، مرحباً بك.

- طلقتُه بعد أن خرج من السجن.

- السجن؟.

- نعم. بتهمة الزنا.

- الزنا؟.

- ضبطته الشرطة مع امرأة.

- امرأة؟.

- أنا ذهبتُ إلى القسم وطلبتُ من الشرطة أن تحضر.

- الشرطة؟.

أعيد الكلمات وراءها بآلية بليدة.

- كان يظن أني في العمل مثل كل يوم، الباترون أعطاني «كونجيه» لأنه رآني متعبة. عدتُ إلى البيت فجأة وكانا معاً.

- رأيتهما معاً؟.

- من النافذة. لم أدخل. رأيتهما من النافذة فقط. كانت صدمة. من يومها وهذه البحة في صوتي وكأن هناك ما ذبحني وعلق في حلقي. أحس اختناقاً حتى اليوم، بعد مرور ثلاثة أعوام.

- تعرفينها؟.

- لا . لا أعرفها. حاشاك. قحبة. سايبة. حاشاك. ماذا تسمونها عندكم؟.

كدت أقول: عندنا يسمونها شرموطة. بلعتُ الكلمة. اكتفيتُ: فلتانة. سايبة. نفس الشيء تقريباً.

أصابعها تتحرك الآن على ظهري تدلكه ولا أراها. أسمع صوتها فقط.

- فعل بي هذا بعد خمسة أعوام من الزواج. عشت معه قصة حب قوية. والنهاية؟ يزني في بيتي وفي فراشي. الحمد لله أنهم هنا لا يتساهلون في الزنا. يستاهل. بقي في السجن تسعة أشهر كاملة.

زنا؟.

كل علاقة بين رجل وامرأة لا يرتبطان بعقد زواج، يتم فيها الاتصال الجنسي الكامل. كلمة (الكامل) وحدها حكاية كاملة. لها شروطها الواضحة.

الباقي؟. **الإمام الخميني** بعينه، صدق أو لا تصدق، **يرى في كتاب فتاواه** أن **التقبيل والمضاجعة والمعانقة وغير ذلك من الاستمتاعات دون الفرج ليست بزنا، بل تستحق التعزير فقط المنوط بالحاكم.**

صوتها يرتجف وأتخيل دموعاً تندفع إلى عينيها المكحولتين.

تذكرت الحكايات المعادة عن مونيكا والسيغار والسؤال الذي يكرره الصحافي الفرنسي على ضيوف برنامجه التلفزيوني: هل يعتبر المص خيانة؟. كان يمكنه أن يطرح هذا السؤال الجوهري على آية الله عندما كان هنا في فرنسا. كان سيعطيه القول الفصل في مسألة حساسة مثل هذه.

في حكاية قديمة من حكايات أمي التي كانت تقصها علينا دائماً: لمحتْ يوماً من بعيد أبي في الطريق يمشي مع امرأة. لم يرها. كان مشغولاً بالأخرى. غيرتْ الرصيف بسرعة كي لا تلتقي بهما. كانت تحكيها لنا بكثير من الكبرياء في كل مرة، مهما تغيرت التفاصيل. كنتُ صغيرةً أصغي إليها وأتصور المشهد وكأنني أراه على الشاشة. أبي يضحك ويتكلم محيطاً بذراعه امرأة جميلة تضع قبعة صغيرة على رأسها وتميل عليه بغنج. قحبة؟. لا يمكن أن تكون إلا كذلك في نظر أمي. أتخيل أمي، الجميلة هي أيضاً،

تجتاز الشارع بسرعة متفادية السيارات، خافضة الرأس، لا تريد أن يكتشف أبي وجودها القريب.

مشهد سينمائي درامي، بعدة مستويات للقراءة طبعاً.

من قبلُ كنت أحاول أن أفهم قراءته هذه. الآن ما عدت أريد أن أحاول. أكتفي بتمرير الصور في رأسي وإعادتها مرات ومرات كمحب سينما يتفرج على مشهد في أحد أفلامه المفضلة.

قضية زنا؟.

وكأن الزنا حكاية صغيرة.

وكأن كل واحد يمكنه أن يزني هكذا ببساطة.

لا يعرف هؤلاء الناس أن للزنا شروطاً صعبة لا لعب فيها حتى في الأزمنة القديمة. **أول شروط الزاني أن يكون شاباً صغيراً.. عطر الرائحة.. وسبب ذلك أن الرائحة العطرة تهيج شبق المرأة وتحدث لها شهوة عالية.. وأن يكون نظيف الثياب حسنها.. وأن يستكثر من الحمّام واستعمال الحناء في شعره.. والسواك والدهن.. وأن يكون من معارفه عجوز قوادة يتعهدها بالإحسان والافتقاد، وأن يكون رقيق القلب سريع الدمعة، قادراً على البكاء متى شاء ليكون متى أمكنه الكلام مع محبوبه شكى أنه هالك من الوجد.. فإن ذلك إذا اتفق من الرجل في خلوة مع امرأة فإنها أطوع له من إحساسه وأقرب لمراده من رجع أنفاسه.**

الشروط كانت للرجال فقط، وكأن المشرّع يعرف أن المرأة جاهزة

دائماً للعشق. وإن حققت الشروط فهذا يأتي هدية إضافية، كرزة فوق الجاتوه الدسم.

شروط الزنا كانت للرجل فقط إذن، أما المرأة فيبحثون عندها عن العلامات الخارجية للرغبة أن تراها: **إذا تحدث معها تديم النظر إليه، وأن يعتريها تثاؤب، وأن تعبث بطرف ثوبها أو إزارها كأنها تقلبه، أو تنكث بإصبعها الأرض، أو تحرك إبهام رجلها بأن ترفعه وتضعه على الأرض، وأن تنظف جسد ولدها وثيابه وتمشطه وتكحله وتعرضه عليه، وأن تكثر ذكره والحديث عليه مع صاحباتها وجاراتها، وأن تضجر ويسوء خلقها بغير سبب إذا غاب عنها خبره، وإن كانت له زوجة أن تصادق زوجته وتكثر زيارتها، وإن رأت في بيته شيئاً من خاص أسبابه أن تأخذه في يدها وتولع به، وإن وجدت فراشه استلقت عليه ولعبت فيه.**

كان للرغبة جبروتها، عند العرب، يخضع لها عالم العاشقين بما فيه ومن فيه. كان للرغبة قانونها الخاص لا يغير منه زواج ولا ولد لا للرجل ولا للمرأة. السيناريو الأساس بين الراغبيْن فقط، وكل من يحيط بهما اجتماعياً، من أزواج وأولاد وأصدقاء وجيران، ليس إلا كومبارس في الحكاية، لا يقف مانعاً عن الشهوة ولا كابحاً لها، بل يمكنه أن يُستعمل لإيقاد نارها والتعبير عنها. البطولة للعاشقين فقط، وكل من حولهما ممثلون ثانويون.

– هنا في العمل لا أحد يعرف أني مطلقة. تعرفين كيف ينظر الرجال في بلادنا إلى المرأة المطلقة. يطمعون بها. يحومون حولها ويحاولون معها. لا أريد مشاكل. أربي بنتي وحدي. لا أحد إلى جانبي. قال لي أبي: سامحيه، ارتكب غلطة ولن يعاودها. هو أيضاً جاء متوسلاً كي يعود إلى البيت ولكنني رفضت. بعد أن

خرج من السجن جاء يبكي ويرجوني.

- كم كانت مدة الحكم؟.

- تسعة أشهر له لأنه متزوج. وثلاثة أشهر لها. هذا حكم الزنا في بلدنا. الحمد لله أن لديّ بنتي. هي كل شيء في حياتي. منذ سنتين وأنا أعيش لها. أعمل من أجلها. لا أحد يقف إلى جانبي. لا أحد يساعدني.

ما علينا. هذا بلد متحضر، تطبق فيه حقوق الإنسان، حتى في حالة الخيانة الزوجية. تسعة أشهر للمتزوجين، وثلاثة فقط للعازبين؟.

بلد متحضر فعلاً، لا جَلد فيه كما يفهمون القرآن. **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة**. والبدء بالمرأة طبعاً. أي..

بلد متحضر فعلاً. نجوتُ على الأقل من هذه العقوبة.

لم يكن لدي ما يكفي من التركيز والمدلكة تمر بأصابعها على باطن قدميّ كي أحسب عدد السنوات التي سأقضيها في السجن، بشرط أن يُقبض علي بالجرم المشهود في كل لقاء طبعاً.

لو مسكوني مع المفكر في كل مرة اجتمعنا فيها لأمضينا حياتنا وراء القضبان. لو مسكوني مع الآخرين قبله وبعده؟. حياتي مهما كانت طويلة لن تكفي. سأبقى مدينةً للقضاء. لن أكون الوحيدة. كل من أعرفهم سيكونون معي.

كلهم؟. لنقل: غالبية من أعرفهم سيقاسمونني المصير نفسه، لمدة

تطول أو تقصر. كل واحد، تبعاً لشطارته في إخفاء الجريمة. البريء في هذا الميدان هو من لم يكتشفوا جريمته بعدُ.

على كل حال يجب أن نضبط بالجرم المشهود كزوج المدلكة، وإلا فالحكاية صعبة. الشائعات والاتهامات والأقاويل لا تلزم أحداً. حدد النبي، الذي عانى اتهام أحب زوجاته إليه، عائشة ومارية القبطية، بالزنا، شروطاً يستحيل تحقيقها لإثبات التهمة، **فمن ذلك وجوب وجود أربعة شهود من الرجال يكونون قد رأوا العمل الجنسي بتفاصيله، أي دخول ذكر الرجل في فرج المرأة كالمرود في المكحلة أو الرشأ في البئر.** وهذا شرط مستحيل تحقيقه بسبب السرية التامة التي تحيط بالممارسة الجنسية، خصوصاً إذا كانت غير مشروعة، كما يقول العارفون.

عندما ضُبط عاشقان في دورة مياه المكتبة أراد المدير العام طردهما من العمل. طلب أحد الزملاء النقابيين الاجتماع به وطلب منه أن يتمهل في اتخاذ القرار ونقل إليه الشروط التعجيزية التي أكدها النبي في حالة كهذه. فكر المدير بالأمر، اقتنع بالحجة، وتراجع عن قراره. خطر لي أن زوج المدلكة ما كان ليذهب إلى السجن لو طبقوا هذه الشروط عليه. هي لم تر من النافذة إلا شبحين ولم يكن هناك لا مرود ولا مكحلة. هل وقع عليهما رجال الشرطة بالجرم المشهود؟. لا بد من ذلك، فهم يعرفون دينهم جيداً في هذا البلد كما عرفه الزميل واقتنع به المدير العام في قلب باريس.

– تزوج؟.

– لا. يعيش وحده كالكلب. حاشاك. ليس هناك من يعتني به. من يطبخ له. ملابسه يغسلها في البلانشيسري. هو كالكلب. أنا

عندي ابنتي تسوى الدنيا.

- يراها؟.

- نعم يراها. أمامها لا أقول أي شيء سيئ عنه. يبقى أباها. لا أريد لها أن تكرهه. يبقى أباها في كل الأحوال.

عاد الصوت إلى الحشرجة وأصابعها الآن على ساقي. رائحة زيت الياسمين الذي تدلكني به تملأ الكابين. أشمها رغم أنفي المسدود تقريباً مرميةً على بطني. أدير وجهي قليلاً وأرى شامتها على حافة وجهها المدور.

أغمض عيني مستسلمة ببراءة أصلية للإيقاع المتهادي وللأصابع المدربة ورائحة الياسمين، لصور قديمة تومض في جسدي العاري وأحاول التمسك بها قبل أن أسقط.

قالت لي سونيا وهي تسير إلى جانبي في سان جرمان: اعترفت لنا فتحية بأنها تغازلك منذ سنوات من دون فائدة، صحيح؟.

لم أجب، اكتفيت بضحكة.

- لماذا؟ ألحّت.

- لماذا تغازلني؟ قلت عابثة.

- لا. لماذا ترفضين؟.

- لا أعرف. أجبت وأنا أهز كتفي باستخفاف.

- لا تعجبك؟.

- ربما.

- لا تريدين أن تفطري، من هذه الناحية، على بصلة؟.

لم أقل لها إن فتحية ليست بصلة، ولكنني سكتُّ بتواطؤ وهي تطلق ضحكتها الساخرة.

- هذا النوع من التجارب يجب أن نمر به، ولو لمرة واحدة. نوع من الاستكشاف فقط. تابعت.

لم أقل لها إنني لم أنته بعدُ من استكشاف عالم الرجال ولست بحاجة، حتى الآن على الأقل، إلى خربطة إضافية.

- قد يكون لك موقف آخر مع امرأة أخرى. واصلت ماكرة.

- لو حدثت المعجزة ورغبتُ في امرأة فأنا التي سأغازلها.

- هذه مزاودة فقط. كالعادة. لا أصدقك.

- لستُ بحاجة إلى تصديقي.

- ألا تكّفين عن اللعب؟، قالت وهي تنظر إليّ بسخط مزيف بطرف عينها.

- من المؤكد أن هذا لن يحدث غداً. ربما عندما سيخلو العالم من الرجال.

- أو يوم تجدين نفسك مع فتحية في جزيرة خالية.

- فتحية أو غير فتحية. أجبتُ بخبث وأنا أستمع معها إلى صوت ضحكاتنا ترتفع في الشارع.

تنقل إلينا الكتب القديمة **أخبار حُبى المدنية**، التي لم تترك رجلاً

من شرها، وكيف كانت أيضاً من كبار السحاقيات، **ويحكى أنها قالت لابنتها: عليك بصحة الشهيق عند الرهز، واعلمي أني نخرت بالبادية نخرة أجفلتْ منها جمالُ عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فلم تجتمع حتى الآن.** كانت جداتنا أفضل منا. يجمعن المجدين.

قيل لمزيد: امرأتك تساحق. قال: نعم، أنا أمرتها بذلك، لأنه أنعم لشفرها وأنقى لفم فرجها، وأجدر، إذا ورد عليها الأير، أن تعرف فضله. وأجدادنا أيضاً؟ رحمهم الله جميعاً.

قالت بعضهن في المفاضلة بين المسألتين: النيك أشفى والسحق أخفى. خلاصة تجربة عميقة. أفهمها جيداً ولكن من أين لي بها؟.

لو كانت المسّاجة رجلاً يدلكني هكذا لملأتْ سيناريوهاتي الاستيهامية رأسي وسخنت دمي.

هل يمكنني أن أحطم الرقم القياسي الذي حققته الروائية الفرنسية التي كتبت [كنتُ سحاقية] خلال ثلاثة أشهر؟. سأكتب أنا [كنت سحاقية خلال ثلاثين دقيقة]. يبدو أننا لسنا سحاقيتين بالفطرة. لا أنا ولا الكاتبة الفرنسية. **ذكر الأطباء أن أصل هذا الداء خلقة في النساء.. وربما كان عادة من الولع باستعمال الجواري لذلك في صغرهن، حتى يبلغن عليه فيقين يشتهينه، كما أن البغاء أيضاً يكون على هذه الحال.. وما كان من السحاق تولداً فهو سريع الزوال سهل الانتقال، وما كان خلقةً فهو عسير البرء وبعيد القبول للعلاج.**

المدلكة امرأة ولمساتها المحترفة لا تحرك مخيلتي. أبقى باردة الدم والصور الذهنية. لا يمكن أن يكون السبب هو حبي الرجال فقط. كثيرات، من قبلُ ومن بعدُ، جمعن المجد من طرفيه. أنا، حتى الآن، لا أرى إلا الرجال. نقطة انتهى. كانت فتحية تذوب وهي تقول لي: أحبك. ولكن تصريحها ما كان يحرك فيّ إلا ضحكة عالية. لِم كنت أضحك؟. هرباً من حرج؟، خوفاً من قبول؟، سخرية من اللغة الإنكليزية التي تنقلب إليها عند كل تعبير عاطفي؟. هي بذكائها كانت تضحك معي وكأنها تدرك أنني لا أجيب بل أؤجل الجواب.

تتابع مدلكتي بصوت خافت وكأنها تفشي لي أسرار الكون:

- مونيك الفرنسية. الزبونة التي كانت قبلك. رأيتِها وأنت داخلة. أظن أن لها قصة صعبة مع الرجال. عندما حكيت لها حكايتي قالت: إن الرجال لا أمان لهم، وإن عليّ ألا أثق برجل بعد الآن. لا بد أن لديها حكاية. سألتها، لكنها اكتفت بهزة رأس ولم تتكلم. لا بد أن لديها حكاية. ستحكيها. لا بد أن تحكيها. بقيت لها أيام هنا وستحكيها. لا تريد أن يدلكها أحد غيري. تطلبني بالاسم. أعطتني عنوانها في باريس وأخذت عنواني. لا بد أنها ستحكي. قالت لي: لا تثقي بالرجال. معها حق. طبعاً معها حق.

لست أنا من يمكن أن يعطيها نصيحة كهذه.

لماذا تتحدث النساء دائماً عن الثقة؟.

عن هشام مولى الرسول: اشتكى رجل إلى النبي قائلاً: إن امرأتي لا ترد يد لامس.

فقال له الرسول: طلقها.

قال: إني أحبها.

قال: فاستمتع بها.

أنا فهمت الدرس البسيط جيداً. أستمتع بهم ويستمتعون بي. نقطة. انتهى. لا أريد منهم حباً ولا إخلاصاً ولا وفاءً، ولا تعهداً بإغلاق الأفق والعينين وفتحة البنطلون.

عندما ستحكي مونيك أكون قد سافرت .سأكون قد قلت وداعاً لهذا البحر، لهذا البلد، لهذا المركز، لهذه المدلكة.

عندما تحكي مونيك سأكون قد غادرت عائدةً إلى حياتي.

هل أحتاج إلى سماع حكايتها؟. السيناريو مكرر. أحفظ الكلمات عن ظهرِ قلب.

ستقولُ اكتشفتْ أنه كان يخونها.

ستقول جاء إليها باكياً لأنه يحب امرأة أخرى وما عاد يتحمل أن يكذب عليها، ولذا فهو يصارحها بالحقيقة الجارحة.

ستقول أخبرها الآخرون من أولاد الحلال الذين عرفوا الحكاية قبلها، وعندما واجهته بها اعترف بالجريمة وشكرها لأنها خلصته من عبء الكذب اليومي الذي حطم أعصابه.

ستقول اكتشفت بعد كل هذه السنوات من الزواج أنه يحب الرجال. أن لديه عشيقاً. أن الناس كلها كانت تعرف إلا هي.

ستقول: جمع حوائجه وغادر البيت.

ستقول لا تحتمل أن يخون أحد ثقتها.

ستقول الرجال لا أمان لهم.

ستقول. ستقول.

هل ستتحدث عن وحدتها؟. هل ستتحدث عن بحثها عن رجل آخر؟. هل ستتحدث عن السهرات مع الصديقات الوحدانيات مثلها؟، عن وكالات الزواج ونوادي لقاءات العزاب والمواعيد بالانترنت؟.

الرجال لا أمان لهم؟.

عندما دخلتُ، كانت مونيك خارجة من الكابين، شقراء مصبوغة مع ابتسامة معلقة على وجهها تلمع بزيت التدليك.

- المرة القادمة عندما ستأتي مونيك من باريس ستحضر لي كريماً للوجه. قالت لي: اطلبي ما تريدين، وحلفتني. ستتصل بي هاتفياً حال قدومها. طلبت مني منذ اليوم الأول أن أدلها على من ينتف شعرها بالسكر. تعرفين السكر؟. تستخدمونه أنتم في بلدكم أيضاً؟. تريد أن تنتف كل جسمها: الساقين والذراعين والإبطين، والوجه أيضاً. كل شيء. أرسلت لها واحدة صاحبتي إلى غرفتها في الفندق وانبسطت كثيراً. هذا يكلفها أقل بكثير من مركز التجميل. تريد أيضاً أن تذهب إلى الحمام البلدي في وسط المدينة، وليس إلى حمام الفندق. سأصحبها يوم عطلتي. لدي عطلة نصف نهار فقط في الأسبوع. ابنتي عند أختي في العاصمة. أصرت على أن تبقى معها خلال العطلة المدرسية. تساعدني. أحب

لهجتكم. ما أحلاها. هناك مسلسل من عندكم أتفرج عليه كل مساء. يهبّل. نسيت اسمه. لحظة، سامحيني، سأغير الكاسيت وأرجع لك.

أغنية خليجية لا أعرفها تسبق عودتها إلي «الله يا زين اللي حضرتْ غطيت على كل الحضور، طليت علينا ونورتْ ما بعد هذا النور نور». لم أعد أستمع إلى الأغاني العربية منذ عصر المفكر، والأغاني الخليجية جديدةٌ على أذني.

لماذا يعود إلي الآن بهذه الحدة بعد كل تلك السنوات؟.

٧

باب شطحات الجسد

مفتوحة له بكل حواسي. أتملاه بعيني. أتشممه. أتلقط كلماته. كان لا يتوقف عن الكلام وأحب كلماته تؤجج رغبتي. تختلط القصائد التي يحفظها بكلمات لذته، بنداءاته. يحدد إيقاع حركاتي عندما أقترب من الهاوية. هذا تعذيب: كنت أصرخ محتجة. بعدها فهمت وتعلمت أنا أيضاً ألا أركض متسرعة وراء الرجفة الأخيرة ترميني لاهثة مضرجة بالعسل والمني، أحتضن لذتي النابضة قلباً بين ساقي.

كنت أراه للمرة الأولى مع شلة من الأصدقاء والصديقات في دعوة عشاء. مازة وعرق لبناني وثرثرة ومناقشات سياسية ونكات مكشوفة وضحك. دار على الجميع يحييهم قبل أن ينصرف مبكراً. وصل إليّ يقبلني تلك القبلات الاجتماعية المحايدة وشممت فجأة رائحة جسده: رائحة الرغبة. أتعرفها ملء أنفي وأعرف، في الوقت نفسه، أننا سنلتقي من بعدُ وأن هذه الرائحة ستملأ رئتيّ ومسام جلدي.

«**من أين ينبثق الحب؟**» يسأل ابن عربي.

«**أحب ما يضيئني ويزيد العتمة في داخلي**». يجيب رونيه شار.

بين السؤال وبعض الجواب كنتُ أتحرك أنا وأناوش المفكر مدركةً خطورة اللعبة التي ترتسم بيننا خطوطها الواضحة أكثر فأكثر.

منذ أن عرفت المفكر، وبعد كل هذه السنوات، لم يمر يوم في حياتي من دون أن أفكر به. لا يمكن أن أشتهي رجلاً من دون أن أفكر به. لا يمكن أن أقرأ صحيفة من دون أن أفكر به. لا بد من أن يكون في يومي ما يذكرني به.

ما يذكرني به؟.

كل تفصيل من تفاصيل حياتي مرتبط به.

تعلمت معه أن أسبح على مهل، أن أغوص في مويجاتي حتى القاع، على مهل، واثقة من أنه معي حتى تلك اللحظة التي سأفتح فيها عينيّ عليه.

أفتح عيني؟. لم أكن أغمضهما كثيراً. كنت أحاول أن أبقى صاحية، متنبهة، أراه وأراني.

في المترو كنت أقرأ الصحيفة الفرنسية الساخرة. رفعت عيني ورأيته ينظر إليّ بتركيز. في مواجهتي يتحدث مع أصدقاء. عدت إلى القراءة التي لم تستمر طويلاً. فيه ما استوقفني. في النظرة ما استوقفني. تلاقت عيوننا من جديد وتلك النظرة العنيدة المكتشِفة مسلطةٌ علي. في المحطة نزلنا معاً. كل في طريقه مع نظرة متأنية أخيرة.

لم أجد الوقت لتخزين النظرة واستعادتها ومحاولة فهمها. كان أمامي في المؤتمر السياسي الذي جئت لمتابعته. هذه المرة هو مع شلة أعرفها. قدمه لي أحد الأصدقاء ولم يتركني. بقي إلى جانبي وكنت سعيدة به. خلال يومين لم نفترق إلا في المساء ليعود كل منا إلى حياته.

«ماذا أفعل بالغصة في حلقي؟»، قالها في آخر اليوم الثاني، بعيداً عن الآخرين. خيل إلي أنني لم أفهم جيداً. عندما أعادها عرفت أنني كنت أنتظرها. كدت أضحك نصفَ جادة نصفَ هازئة كما أفعل عادة حين أهرب من المواجهة. لم أجرؤ. لم أجرؤ أن ألعب معه اللعبة التي ألعبها مع غيره. كان حضوره كاملاً يفرض علي الجواب. توقفت الأرض عن الدوران ودخت. كيف عرفت أن عليّ أن أتخذ قراري في تلك اللحظة وإلا خسرته؟.

ما كنت أريد أن أخسره.

كنت مع المخرج الفلسطيني. يمر في باريس لأيام فقط واتفقنا على أن نلتقي في ذلك المقهى المعروف بزبائنه العرب في قلب الحي اللاتيني. على الطاولة المجاورة كان مع رجلين آخرين. أسمع بعض الكلمات بالعربية عن الوضع في لبنان. أرى وجهه وظهري الآخريْن. هو في مواجهتي يتحدث بشيء من الغضب ولا تتحول عيناه عني. يقف أحد صاحبيه متهيئاً للذهاب ويرى المخرج. السلام والأحضان والشوق وتتحد الطاولتان ويجلس إلى جانبي ولا يفارقني. يتحدث ويضحك وكأن سعادة مباغتة ارتمت عليه. يتحرك وتلمس ذراعه العارية ذراعي. كم مرة لمست ذراعه العارية ذراعي عفواً. «لا أتصرف هكذا عادة، لكن شيئاً أقوى مني كان يجبرني على الاقتراب منك»، قالها لي فيما بعد وأنا بين ذراعيه.

منذ عرفته لم يتوقف عن قراءة الشعر. قصائد كاملة يحفظها غيباً. يقرأها لي وأتخيل أنه يعيد كتابتها لي وحدي.

هل كان الشعر أحد مفاتيح جسدي؟.

كان الشعر دائماً بيننا. يحبني بقصائد الآخرين. عندما يسافر يتصل بي ليعطيني عنوان ديوان وقصيدة. أبحث عن الشاعر وأقرأ الكلمات وأدرك أنه معي.

بيسوا وكفافي وشار وميشو وآخرون لم أكن أعرفهم. صرت مثله، لكنني أحفظ القصائد العربية التي أحبها غيباً ولا أرددها إلا أمامه.

كان الشعر دائماً بيننا؟.

معه عدتُ إلى كتابة قصائدي الصغيرة وصارت طقساً في أول كل لقاء. يسألني عن كلماتي. بصمت أمد له يدي بالقصيدة ويقرأ وكأنه يستكشف أعماقي المظلمة خلف خفة عبثي وضحكاتي. يستكشف ما لا أجرؤ على البوح به حتى لنفسي. بصمت يطويها حريصاً ويضعها في جيبه.

هل كان جسدي أحد مفاتيح الشعر؟.

كنتُ في معرض الكتاب في مدينة عربية. حللتُ محلَّ الزميلة التي مرضت في اللحظة الأخيرة. اختارها المدير لتمثيل المكتبة وترتبت الأمور كلها كي تسافر. مرضت هي وسافرتُ أنا شبه مكرهة. عندما جاء موفد المعرض يبحث عن القادمين من باريس كنا

خمسة وكان إلى جانبي. بدأت الكلمات المغناطيسية مقنعةً بالفضول المشروع ولم تنته. بعدها حكى لي. وحكيت له. حكى لي كيف رآني في المطار وكيف راقبني من مقعده في الطائرة: كأنه يعرفني. حكيت له الحكاية نفسها: كأنني أعرفه. التقينا ولم ننته، والجسد هو الذي يبدأ الحكاية.

أبدأ في الصباح فالمفكر قرينُ عريي. يكفي أن أنظر إليّ عارية في المرآة حتى أتذكر كلماته عن جسدي. عن ثدييّ، عن فرجي، عن مؤخرتي، عن جلدي، عن رائحتي، عن لوني.

أستعيد كلماته وأرتجف. أستعيد كلماته ولمساته ونظراته وأرتجف.

أستعيد وأرتجف، وأريد أن أنسى كي أتابع الحياة.

كان المفكر يقول لي: هل تعرفين أكثر ما أحب فيك؟.

أنظر إليه بمكر صامت وأضحك.

- لا. ليس ما تتصورين، وإن كنت «أحب أفكارك البذيئة». يعيد الجملة الإنكليزية المعروفة ضاحكاً.

- لم أتصور شيئاً. أنتظرُ الجواب فقط.

- أحب فيك شيئين: حريتك وعروبتك.

- لم يخطر لي يوماً أن تكون الحرية والعروبة جزءاً من السكس أبيل.. أجيب بخفة عابثة تحاول إخفاء الوجع يزلزل الوعي بينما تتغلغلُ الكلمات عميقا لتُسترجع حرفا حرفاً فيما بعدُ.

أستعيد الآن كلماته وأرتجف. أستعيد الآن كلماته ولمساته ونظراته وأرتجف.

أستعيدها الآن ولا أريد أن أنسى.

أريد أن أتذكر.

أريد أن أكتب.

تعددت السيناريوهات وتشابهت البدايات. اكتشاف الآخر فجأة، النظرات المتبادلة، الكلمات المتكررة، الضحكات العصبية، اللمسات غير المتعمدة، حرج لحظة البوح. كيف نعيد خلق كل هذه التفاصيل مختلفةً في كل مرة؟.

أيها كان مع المفكر؟.

كلها، أو ولا واحدة منها؟.

تختلف التفاصيل الصغيرة وتبقى الحكاية الأصلية، وأنا أحب تفاصيل الحكايات تتلون في كل لقاء بمعنى جديد.

كل رجل جديد حكاية جديدة.

أية حكاية منها كانت مع المفكر؟.

كتب لي البعيد في رسالة بالإنترنت، بالإنكليزية، نكتة بلهاء عنوانها: المرأة والسرير.

يقول البعيد:

في الثامنة: تقودها إلى السرير لتحكي لها حكاية.

في الثامنة عشرة: تحكي لها حكاية لتقودها إلى السرير.

في الثامنة والعشرين: لا تحتاج لأن تحكي لها حكاية كي تقودها

إلى السرير.

في الثامنة والثلاثين: هي التي تحكي لك الحكاية لتقودك إلى السرير.

في الثامنة والأربعين: تحكي لك حكاية كي تتجنب الذهاب إلى السرير.

في الثامنة والخمسين: تبقى أنت في السرير لتتجنب حكايتها.

في الثامنة والستين: إذا قدتها إلى السرير فهذه هي الحكاية.

في الثامنة والسبعين: أي سرير وأية حكاية؟!، أي نوع من الرجال أنت بحق الشيطان؟!.

نكتة بلهاء كتلك التي يتداولها الرجال ليواسوا أنفسهم من قيد الفخ الذي يركضون وراءه.

فتنتني النكتة بطرفيها الأساسين: السرير والحكاية. في حياتي أنا كان كل واحد منهما يقود إلى الآخر.

في حياتي كانا مرتبطين تماماً، وأنا أتأرجح بينهما.

في حياتي كنتُ مدمنة حكايات وأسرّة.

كل رجل حكاية، وكل حكاية سرير.

لا أريد أن أخسره.

لا أريد أن أخسرها.

على سرير الحكايات أتمايل وأتثنى.

ألمس بأصابعي السماء،

وأحفر وديانـاً في جفاف الروح.

أنا أستعمل الفراش في ترجمة هذه الكلمة. كتب إليّ البعيد بعد أن أعدت إليـه التـرجمـة العـربيـة في الرسـالـة الإلـكـترونـيـة. لماذا تستعملين السرير؟.

أجبت: الفراش عندي للنوم والمرض، للولادة والموت. السرير للذة. السرير من السر. الرغبة هي السر. اللذة هي السر. الجنس هو السر. الجنس هو سر الأسرار. لذا يبقى في رأسي مرتبطـاً بالسرير حتى ولو فعلتها في المصعد.

- وهل فعلتها في المصعد؟، يسأل البعيد في رده، وأتخيل حاجبيه الكثيفين يرتفعان بشراهة فضولية.

- ولا حتى في الهواء الطلق. أكتب إليه باختصار.

أحـب الأسرار. هـذه الحكـايات التي لا يعرفـهـا غيري هي معنى حياتي. حياة كاملة هي ملكي أنا وحدي. لا يشاركني فيها أحد. يكفي أن أغمض عيني حتى أتذوق عسيلة اللذة وأتلمظ بطعمها. يـكـفـي أن أغـمـض عيني كـي تـرتـسـم الـصـورة أمامي بـالـصـوت والصورة والرائحة والملمس والمذاق. يكفي أن..

هل يمكن أن أتابع الحياة من دونها؟.

هل يمكنني أن أصحو كل صباح مع القدرة على بدء نهار جديد من دونها؟.

يأتي الجواب واضحـاً جارحـاً كحد السيف، ولا أخاف.

في الفترات الطويلة ما بين حكايتين أعيش على مخزوني واثقة من أن الأيام القادمة ستحمل لي حكايتي الجديدة.

لم أكن أنتظرها فأنا لا أعرف الانتظار.

لم أكن أتعجلها.

وبعدين؟.

كنت أسأل نفسي دائماً، وأكتفي بالسؤال.

الأجوبة، مثل الحكايات، تأتي وحدها، في وقتها، كما تسقط الفاكهة الناضجة من الشجرة.

٨

باب زمن التقية في المجتمعات العربية

في الصباح كنت أعمل على فصل المقويات الجنسية، وها هم حولي، في المساء، يتندرون بحكاية الفنان المصري الذي جرب الفياغرا السورية فانتفخ رأسه وبقي عضوه مرتخياً متهدلاً مدلدلاً. البنت التي كانت معه ارتعبت وهربت. هو خاف أكثر منها ولم يجرؤ على دعوة الطبيب. بالهاتف استشار صديقاً نصحه بالانتظار قليلاً والصبر على الأعراض التي ستختفي وحدها، على ألا يفعلها مرة أخرى.

قرأت أرقاماً مخيفةً في دراسة عن العجز الجنسي عند الرجال في المنطقة العربية، وعن الأرقام الخيالية بالدولارات عن الأموال التي تصرف في شراء الفياغرا وأخواتها من أدوية الحب، كما يسمونها في الإعلانات التي أتلقاها يومياً بالإنترنت. تذكرت شخصيات آخر رواية قرأتها لرشيد الضعيف وكيف يبلعون الفياغرا كحبات الأسبرين.

لماذا انتظروا الفياغرا كي تنقذهم من البؤس؟ بؤس جنسي معمم وليس واقعاً فردياً. بؤس جنسي يسكن حتى علاقتنا بتراثنا. ما عليهم إلا أن يقرأوا كتب الجنس ويطبقوا الوصفات. يقال: إنها مضمونة، على ذمة المؤلفين. تستعملها فترى العجب. ما يهيج المرأة وما يثير الرجل، وما يطيل الذكر ويغلظه، وما يضيق الفرج ويطيبه. صحيح أنه من الصعب الحصول على بعض المواد الأولية المطلوبة مثل قضيب الثور الأحمر، أو مخ الديك الأبيض، أو مرارة الذئب، ولكن الفلفل والسنبل والمسك والزنجبيل وماء العنب والزيت متاحة للجميع.

تأخذ ماء فاتراً وتدلك به الذكر حتى يحمر وينتصب، ثم تأخذ قطعة من الرق الرقيق وتجعل عليه الزفت الساخن، ثم تلفه على الذكر، تفعل ذلك مراراً متعددة، فإنه يعظم ويكبر.

قبل هذا كله، وهذه نصيحتي أنا، من المستحسن أن يكون رقم أقرب مستشفى إلى جانبك.

أخرج الناشر هاتفه وبدأ يقرأ نكتة أرسلت إليه (إس إم إس). التكنولوجيا الجديدة في خدمة النكات الجنسية . أعرف النكتة وأضحك معهم. كان إيلي يتلقى كل يوم نكات جديدة عن هيفاء ونانسي بالهاتف النقال. يحفظها غيباً ويحكيها. تصل إلي النكات الجديدة بالإنترنت غالباً، أقرأها وأنساها، إلا نادراً. أتذكر فقط النكات اللغوية. المفضلة عندي عن الشيخ المغربي الذي يعلم الطالبات نواقض الوضوء، يعددها واحداً واحداً إلى أن يصل إلى مس الذكر، وستسأله واحدة من الصبايا: يا شيخي، بالسين أو بالصاد؟.

نكتة من هذا النوع لا يمكنني إلا أن أحفظها منذ المرة الأولى. لم أقل شيئاً. كنت أستمع إلى مثقفي مجتمع التقية وأسجل.

نكتة جديدة يحكيها الناشر. لا يقرأها على النقال هذه المرة. يحفظها. يضحكون وتتالى تعليقاتهم. لا أقول الكثير. أكتفي، كعادتي، بالتعليقات البرقية والضحك المسهب.

- الفياغرا أنقذت الناس وبيضت وجوهنا بعد سواد، بيض الله وجه مكتشفيها ومخابرها. يجب اقتراح أسمائهم لجائزة نوبل. أدوا خدمة للإنسانية جمعاء، نساء ورجالاً.

يعاود الشاعر ويضحك الجميع.

- هل تعرفون لماذا صارت الفياغرا تصنف في خانة المساحيق لا في خانة الأدوية؟. يسأل الناشر.

كنت أعرف النكتة واكتفيت بالضحك.

- لأنها تبيض الوجه.

- لم أستعملها في حياتي، يستنكر العدّاد. أشتريها تلبية لتوصيات الأصدقاء في البلدان العربية. لا أسأل واحداً منهم: ماذا تريد أن أحضر لك من باريس إلا ويكون جوابه: فياغرا. المستوردة ثمنها هناك مرتفع جداً بينما المحلية رخيصة. يبدو أنها جيدة ومضمونة التأثير.

أسمعه يفصل أسعار كل نوع وحدود نجاعته.

يصرخ الخذروف:

- تقول إنك لا تستعملها، وتعرف هذا كله؟.

- أشتريها هدايا للأصدقاء، والله هدايا. هم يحكون لي.

لم تكن هناك فياغرا أيام المفكر. كنت أشتهيه. كان يشتهيني. لسنا بحاجة إلى منتجات أي مختبر خارجي، كان جسدانا كافيين.

ماذا سيخطر لهؤلاء الجالسين حولي لو يقرأون ما أكتب؟. ماذا سيخطر لهؤلاء عندما يكتشفون أني كسرت العقد الاجتماعي؟. أني انتهكت قانون التقية الذي يطبقه الجميع؟. فضيحة. هذا ما كانت تخبئه خلف ضحكاتها؟. كنت واثقاً من أن تحت السواهي دواهي، أن تحت القشرة الاجتماعية فلتانة من الدرجة الأولى. كنت واثقاً..

كم واحداً منهم سيعلنها إعلان العارف ببواطن الأمور؟.

ضحكات الجميع ترتفع ساخرة. كلهم رجال. في البداية ما كانوا يجرؤون على استعمال الكلمات الإباحية، كما يسمونها، أمام امرأة. أضحك عالياً من دون حرج. تبدأ ألسنتهم في الدوران بنكت وحكايات وقصص للرجال فقط. ينسون أنني بينهم، أو يتناسون، وهذا ما أريد. ألست أنا صاحبة شعار: ما اجتمع رجلان إلا وتمنيت أن أكون ثالثهما كالشيطان. إنهم أربعة حول شخصيتي الاجتماعية المُطَمئنة.

- أيام كان السُّكَّر عندي مرتفعاً، وما كان يمكنني أن أفعل شيئاً من دون الفياغرا وأخواتها. الآن، بعد الريجيم، انخفض السكر وما عدت بحاجة إلى المقويات.

نظرت إلى الشاعر وخطر لي أنه فقد ربع وزنه فعلاً، ولكنني لست متأكدة من أنه يستطيع من دون الأدوية الجديدة.

طلب الجميع أطباقاً من السمك والحيوانات البحرية. تذكرت ما قرأته عند طبيب إيلاف عما يسمى شوربة **الفياغرا أهم منشطات الغلابى، اختراع مصري خالص وبراءة اختراعه محفوظة لمطاعم السمك وللبائعين المتجولين، وهي خليط عشوائي من قواقع البحر من أم الخلول والبكلويز وأرجل الكابوريا وفتات الجمبري وقليل من السمك المسلوق مع كثير من الشطة والبهارات، ويُنصح بها كل عرسان المناطق المطلة على البحر ويثقون فيها ثقة عمياء، فالحاجة أم الاختراع وسكان السواحل الذين جعلهم وزير الصحة بمنع الفياغرا فترة طويلة يلجؤون إلى اختراع هذه الشوربة العجيبة التي تسخن أجسادهم وتعيد إلى أطرافهم الحيوية والنشاط.**

من المؤكد أن الأصدقاء حولي يعرفون الوصفة ولا حاجة لهم بي كي يختاروا ما فيه فائدتهم المأمولة.

جاء الناشطُ يوماً إلى المكتبة مستبشراً، ابتسامته بين أذنيه. لم يكن بحاجة إلى رؤية حاجبيّ المرفوعين ونظرة الاستغراب على وجهي عندما دخلت مكتبه واثقة من أن خبراً ينتظرني. أغلقي الباب. قالها موشوشاً. أمس جربت الفياغرا للمرة الأولى. شيء خارق للعادة فعلاً. أفهم الآن ذلك الصديق الذي ما كان يتوقف عن الدعاء بالخير لمخترعيها ومخابرها ومعاملها. جازاهم الله خيراً وأسكنهم الجنة لأن ما قدموه من خدمات للإنسانية لا يمكن أن يُقدر بثمن.

أما المخرج التلفزيوني الذي يردد دائماً أن الإيروتيكية لا يمكن أن تكون إلا ثورية ، فقد كان يرفع عالياً العلبة السحرية التي وصّى عليها من الولايات المتحدة مباشرة معلناً أمام الجميع: لدي العلبة، لم يبق إلا أن أجد المرأة التي سأنام معها. عندها نرد جميعاً بصوت واحد لإغاظته: وزوجتك؟. يجيب بعناد: لست غبياً لأضيعها على زوجتي. عمرها إن شاء الله ما انبسطت. قال مرتي قال!.

تتعالى ضحكات الجميع وهم يمضغون ويشربون في المطعم الباريسي. لم أرهم في جلسة كهذه إلا وحيدين من غير زوجاتهم، حتى في بلادهم.

أين زوجاتهم؟.

تذكرت مشهداً في فيلم لفاتح أكين، يقول فيه البطل للأتراك المجتمعين حوله يخططون للذهاب إلى الماخور: لماذا لا تنيكون زوجاتكم؟. يبهتون، يعدونها إهانة، وينقض عليه أحدهم ليضربه. كانت النساء في غرفة ملاصقة يتسلين بالسخرية من أداء أزواجهن في السرير الزوجي.

على الأقل لا يتظاهر هؤلاء الأصدقاء بالوقار والعفة والاحتشام. من المؤكد أن الحرية في الكلام نوع من الحرية الجنسية. من قال إن «الحكي ببلاش»، وإن الكلام مجاني، وإن من يتكلم لا يفعل، وإن الكلام تعويض عن الفعل. هذا كله ليس صحيحاً. الكلام عن الجنس بعضٌ من الطاقة الجنسية. أتذكر جارتنا المثيرة في دمشق وكلماتها المبطنة، وأمي التي تستمع إليها وتضحك بحرج وتعتبرها مجنونة من دون مخ. كنت صغيرة وما كنت أفهم نصف ما

تقول، لكنني كنت أشعر بحرارة ما تحيط بها كهالة القديسين، تحرق الآخرين حولها، تخاف منها النساء وتثير قلق الرجال.

الطريف أن الأصدقاء يعمدون إلى اللغات الأجنبية عندما يريدون استعمال أية كلمة جنسية. الكلمات الكبيرة كلها تصير صغيرة بلغة أجنبية. الحرج الموجود في استعمال الكلمات نفسها بالعربية يتبخر. بالإنكليزية أو الفرنسية يلفظون أية كلمة من هذه الكلمات بكثير من الثقة.

٩

باب اللسانيات

أدرك أكثر فأكثر أنني مخلوقة لغوية. تنصب لي اللغة شراكها. تجبرني على تلمس أصواتها، على التأمل فيها والإمعان في تقصي معانيها. لذلك أحب المعاجم من كل نوع، وأعود إليها عند كل سؤال. أسئلتي اللغوية لا تنفد.

لا يمكنني أن ألفظ كلمة من دون أن أحاول العودة إلى جذورها وفهم أصولها واشتقاقاتها وفروقات معانيها، وحتى محاولة اختراع كلمات جديدة في لغة لي وحدي.

أمس قال لي الجوّاب إن شعاره هو: أنا أنيك إذن أنا موجود. يقولها بالفرنسية، بلغة ساد، لا موليير، وأعيدها وراءه ببساطة وأنا أضحك وأعتبرها لعباً بالكلمات.

كان الجوّاب يستعمل الفعل دائماً في صيغة انتاك. وكنت أدهش في كل مرة. صيغة توحي لي بالسلبية أستغربها منه هو الهتاك

انفتاك، كما تدعي حكاياته. يخطر لي أنني أحب استعمال الفعل الثلاثي حراً من دون أي تشويه اشتقاقي يفسد نضارة معناه.

أنا أنيك إذن أنا موجود. لماذا لا يمكنني أن أقولها أو أكتبها بالعربية؟.

بالعربية، النيك، لفظاً وفعلاً، ممنوع من العلنية في أيامنا هذه. النيك معصية حتى ولو كان شرعياً في أيامنا هذه. حتى كلمة النكاح في عنوان أحد كتب شيخنا السيوطي هُذِّبت وترجمت من العربية إلى العربية [**الإيضاح في علم النكاح**]، صارت [**الإيضاح في علم الجماع**] وطز في السجع.

عندما استخدم المفكر يوماً كلمةً بالفرنسية، سألته عن ترجمتها العربية:

– استعمال (لاط، يلوط) شائع حتى في الدارجة. لماذا تسألين؟.

– لا أعرف. أجد الكلمة مناسبة للرجال، ولكنني أريد أن أخترع كلمة جديدة عندما يتعلق الأمر بالنساء. ما رأيك أن أصرّف فعلاً من الاسم: (سدم) من (سدوم)، كما في الفرنسية. هكذا نميز بين الحالتين.

– التمييز واضح كما تعرفين، ولا حاجة بنا إلى اختراعاتك اللغوية.

– اسمع، جدياً، كما نقول: ضرب عمرو زيداً، سنقول: سدم زيد هنداً. ما رأيك؟. ننتقم له بهذه اللذة بعد أن شبع ضرباً في كتب اللغة.

- رأيي أن تستفتي شيوخك في قسم اللغة العربية، ما دمت لسانية إلى هذا الحد.

ماذا لو استفتيت هؤلاء المثقفين من حولي. من المؤكد أن لديهم ما يقولون في هذا المجال. لا. لن أفعل، وإلا فستقودهم مناقشةُ الكلمة الجديدة بالتداعي إلى الحكايات نفسها عن الوزير المثلي، ومن سار على الطريق نفسه من أهل النقابة، كما يسمونهم ساخرين، وآخر أخبارهم وفضائحهم، مما أعرفه عن ظهر قلب. لن أسمع جديداً. لأدعهم يتدغدغون بذكر الحبة الزرقاء التي تحيي العظام بعد رميم. هذا موضوع جديد معهم، لي على الأقل.

هل أسألهم كيف يترجمون عربية القرن الخامس عشر إلى عربية اليوم في كتاب [**الأيك في معرفة النيك**]، أو [**نواضر الأيك في نوادر النيك**]؟.

كل هذا النفاق يذكرني بما كتب الجاحظ: «**وبعضُ مَن يُظهر النسك والتقشف، إذا ذُكر الحر والأير والنيك تقزز وانقبض. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجلٌ ليس معه من المعرفة والكرم، والنبل والوقار، إلا بقدر هذا التصنع.. وإنما وُضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهلُ اللغة، ولو كان الرأي ألا يُلفظ بها ما كان لأول كونها معنىً، ولكان في التحريم والصون للغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها**».

أترجم الآن الجملة من فرنسية الجوّاب وأكتبها بالعربية:

أنا أنيك إذن أنا موجود.

ناك ينيك.

أكتب الكلمة ويضع الحاسوب خطاً أحمر تحتها.

أتسلى بتصريف الفعل واشتقاق الكلمات، وترتسم الخطوط الحمر تحت كل كلمة.

أكتب كل الكلمات الحساسة ولا يتعرف الحاسوب إلى أي كلمة منها. يضع تحت كل كلمة خطاً أحمر، وكأنه بُرمج بالتقية هو الآخر.

حاسوب عذراء!. حاسوب مخصي على الأصح.

من خصى اللغة؟.

من خصى الحاسوب؟.

من خصاني؟.

عندما التقيت المفكر بعد غياب في المطعم الياباني كان يجلس في مواجهتي. يمد يده ليلمس يدي: أشتهيك. أريد أن أدخلك. الآن. كانت عملية الحب بالكلمات متوترة وعنيفة. التفاصيل كلها: من الأنفاس الساخنة حتى ارتجاف الجسد. من البلل المتحفز إلى ضربات القلب الضاجة. من الاقتراب المرتبك حتى سكون الالتصاق.

«**أكبر لذة بعد الحب هي الحديث عنه**»: كانت تكتب الشاعرة لويز لابيه في القرن السادس عشر. هل يغير من الأمر شيئاً أن يقولوا لي إنها شخصية مختَرعة؟.

مع الجوّاب كان ثلاثة أرباع كلامنا عن الجنس. اشتهاني منذ لقائنا الأول، منذ سنوات. الشهوة بقيت معلقة حتى إشعار آخر. في كل

مرة نلتقي يذكرني بالحكاية نفسها. يفصل لي ما يريد أن يفعله معي. برنامج كامل. أضحك. أستمع أحياناً وأخرسه أحياناً أخرى تبعاً لمزاجي. تحول الأمر إلى لعبة بيننا.

في آخر لقاء قال لي: طبعاً نمنا مع بعضنا. هل تتصورين أننا لم نفعل هذا حتى الآن. بالكلام فعلنا أكثر.

ضحكت وخطر لي أنه محق ربما. الحميمية التي نتعامل بها لا أعرفها مع أي رجل آخر. ولا حتى مع امرأة. نتحدث عن الجنس بالمكشوف. يحكي لي مغامراته بالتفاصيل الدقيقة. يلح علي: وأنت؟. احكي لي آخر مرة نمت فيها مع رجل!. وأجيب في كل مرة: قلت لك أنا لا أنام. أنا أصحو.

- كذابة. أنت لا تفعلين شيئاً خارج الزواج.

- هو يصر على عدم تصديقي معاوداً أسطوانته المعهودة. وأنا أحاول إلهاءه مطالبة بأخبار رحلته الأخيرة والبنت الخليجية التي نام معها.

- حلوة. ممتلئة. صدرها يجنن. ولكنها صرعتني. في السرير لم تسكت. تغني. تنتحب. لم تتوقف عن الكلام الطالع النازل. تصف ما نفعل أولاً بأول كأفضل معلق رياضي في البث المباشر. في البداية هيجتني أكثر، ثم بدأت أحس وكأن كلماتها نوع من التشويش. حاولت إسكاتها بالقبل مطبقاً على فمها، لا فائدة. ما إن أتوقف لحظة حتى تعاود البث. لم أعرف كيف انتهيت. أوف!.

- كنت أضحك محاولة تصور المشهد.

- هذه هي النهاية. احك لي الحكاية منذ البداية.

- تعمل في مكتب المسؤول الذي كان علي أن أجتمع به. خلال الغداء الذي نظمه مديرها كانت تجلس إلى جانبي. بدأت أغازلها بالكلام وهي متجاوبة. قربت ساقي من ساقها تحت الطاولة ولم تبعدها. بالعكس ضغطت علي. قلتُ لك: متجاوبة.

- والناس حولكم؟.

- لم يلاحظ أحد شيئاً.

- وبعدين؟.

- بقينا وحدنا، وصار الكلام أكثر صراحة. قالت لي إن جرأتي تعجبها. عرضتُ عليها أن تصعد معي إلى غرفتي في الفندق، أجابت بأنها متزوجة ولم تخن زوجها أبداً.

- وبعدين؟.

- قالت إن عليها أن تطلق زوجها قبل أن تنام معي. قلت لها إن هذا يتطلب زمناً لا نملكه لا أنا ولا هي. أفهمتها أنه ما دمت أعجبها وتعجبني فلننتقل إلى مرحلة أبعد. مانعت بقوة، صعدت معي إلى الغرفة وهي تمانع وتؤكد لي أنها تحب زوجها وتخلص له. قبلتها في المصعد وهي تمانع. تلبس الجينز تحت العباءة. في الغرفة شلحتها ثيابها وهي تمانع. بدأت في تقبيل ثدييها وهي تمانع.

- فهمنا.

- أنت التي تطالبين بالتفاصيل. كانت تلبس أحلى ثياب داخلية رأيتها في حياتي. من الحرير الخالص. الحقيقة أنها لذيذة. تصوري

أن زوجها أصغر مني بكثير. تصوري. قالت لي إنها المرة الأولى التي تنام فيها مع رجل غير زوجها.

- وصدقتها؟.

في كل مرة ينام فيها رجل مع امرأة متزوجة تكون هي المرة الأولى التي تخون فيها زوجها. العربية قبل الزواج (ما باس فمها إلا أمها). بعد الزواج يمكن إضافة: الزوج فقط. كلهن عذراوات بشكل أو بآخر. كانت سهام تقول لكل رجل تلتقي به إنه الأول في حياتها، رغم زواجها وأطفالها الثلاثة. لماذا؟، يسألونها. لأنها مع زوجها باردة جنسياً. لأنه ينام معها في كل مرة وكأنه يغتصبها. يضربها ويقمعها ويمنعها من الخروج. تردد الحكاية مع كل رجل جديد. لم أسمع الحكاية منها بل وصلت إلي بالتسلسل من عدد لا بأس به من هؤلاء الرجال.

١٠

باب التربية والتعليم

عندما عرفت المفكر اتقدتْ النار. أحرقتني فترةً، ولا سيما بعد رحيله. هل كان هذا هو الثمن الذي علي أن أدفعه مقابل الرحلة الاستكشافية التي عشتها معه؟. هل كان هذا هو الثمن الذي عليّ أن أدفعه قبل أن أعود إلى الحياة؟. قبل أن يأتي مفكرون جدد أتابع معهم اكتشافاتي؟.

جاء عن القدامى ما حكي عن وصية عجوز لابنتها قالت، قبل أن تهديها إلى زوجها: إني أوصيك يا بنية وصية، إن أنت سمعتها سعدت وطاب عيشك وعشقت بعلك. إن مد يده فانخري وازفري وتكسري وأظهري له استرخاء وفتوراً. فإن قبض على نهديك ارفعي صوتك بالنخير. وإن أولجه فيك ابكي وأظهري اللفظ الفاحش فهو مهيج للباه ويدعو إلى قوة الإنعاظ. فإذا رأيته قد قرب الإنزال انخري له وقولي له: صبه في القبة وغيبه في الركبة. فإذا هو صبه طأطئي له قليلاً وضميه واصبري عليه وقبليه وقولي له: يا مولاي ما أطيب نيكك..

لم تقل لي أمي شيئاً من هذا، ولا حتى بعض بعضه. أسخن ما علمتني إياه، وأنا مراهقة، هو أن ملائكة السماء نفسها تتبادل القبل. هذا معناه أنه يمكننا نحن، سكان الأرض، أن نقبل بعضنا بعضاً. أما الترجمة الفصيحة لكلامها فهي: يمكنك أن تقبلي ابن الجيران الذي يغازلك بشرط أن تكتفي بهذه القبل ولا تتجاوزيها.

شَرَحتْ لي هذا وكنتُ طبعاً قد قطعته بمراحل. ضحكتُ عالياً وانحفرت الجملة في رأسي. عندما يصحو الأهل على هذه الأمور يكون الأولاد قد انتقلوا إلى كوكب آخر، مَنْ ضربَ ضربَ، ومَنْ هربَ هربَ. تقول النكتة إن الأب قال لابنه: لقد كبرت ويمكننا الآن أن نتحدث بصراحة في الموضوعات الحساسة. ويجيب المراهق: قل لي ما الأسئلة التي لا تجد جواباً عليها؟. كنا نعرف أكثر من آبائنا، وأولادنا سيعرفون أكثر منا. لو أن أمي قرأت ما قرأته أنا مما كتبه العرب عن القبلة، مكان الاستئذان، لما أعطتني تلك النصيحة:

اعلم أن القبلة أول دواعي الشهوة والنشاط وسبب الإنعاظ والانتشار، ومنه تقوم الأيور وتهيج الإناث، ولا سيما إذا خلط الرجل بين قبلتين بعضة خفيفة وقرصة ضعيفة..

هذه الأم الواعية التي تعلم ابنتها الغنج لا نجدها إلا في كتب الباه، لن تكتفي بهذا، والنصائح التي ستعطيها للصهر لن تكون أقل أهمية. وفي بعض الكتب نجد الأب يمارس الدور نفسه ناصحاً ابنته.

إن حُبى لم تكتف بتعليم نساء المدينة «**القبع والغربلة**» كما تقول

الكتب، بل قدمت زبدة معرفتها إلى ابنها الذي سألها يوماً: **يا أماه، أي الحالات أعجب إلى النساء من أخذ الرجال إياهن؟، فأجابت: يا بني، إذا كانت مسنة مثلي فأبركها وألصق خدها بالأرض ثم أوعبه (أدخله كله) فيها. وإذا كانت شابة، فاجمع فخذيها إلى صدرها فأنت تدرك بذلك ما تريد وتبلغ حاجتك منها.**

أنا لم يعلمني أحد. لا أمي ولا أبي، ولا حتى أختي الكبيرة. لم يشرح لي أحد. أبداً، عدم، والو. ريان. نثينغ. نينته. تربيتي الجنسية النظرية جاءت من الكتب والأفلام والحكايات ومراقبة النساء والرجال حولي. عملياً، كان علي أن أتعلم وحدي، بالتجربة والخطأ. شيئاً فشيئاً. على مهل. انطبختُ على نار هادئة جداً، بل مطفأة في أحيان كثيرة. هذه ليست نكتة.

نعم. بدأت تربيتي الجنسية كتابية وسينمائية: الروايات والمجلات والأفلام والمسلسلات. الجنسية؟، لأقل العاطفية، مع جرعات من ثقافة جنسية عملية ومعرفة نظرية عربية تراثية. أفلام البورنو وكتب الجنس ومجلاته لم أعرفها إلا بالفرنسية بعد سفري إلى باريس.

لست وحدي في هذا الجهل. يبدو أنه منتشر في عصر الانحطاط الجنسي الذي نعيشه الآن. ما علي إلا أن أقرأ الأسئلة الجنسية في صحيفة إيلاف على الإنترنت حتى أكتشف هذا البؤس الجنسي العربي المعمم. أتصور الطبيب المختص يشد شعره وهو يرد على القراء المحتارين. كل ما يخطر على بالك وما لا يخطر من أسئلة، تجهل حتى الأولي في علم التشريح. كيف يمكننا أن نتحدث عن تربية جنسية في حالة كهذه؟.

أمس، رداً على سؤال عن غشاء البكارة، صرخ هذا الطبيب جوابه، للمرة المليون، في وجه قارئة هلعة: **صار البحث عن غشاء البكارة في العالم العربي كالبحث عن إبرة في كومة قش، وانتظارُ أن تحظى البنات بثقافة جنسية سليمة أصبح كانتظار جودو.** وأتساءل أنا: كيف يمكنهن قراءة **شقائق الأترج في رقائق الغنج**، وهن يعشن في العصر الحجري الجنسي؟.

ليس الصبيان في وضع أفضل، وأسئلتهم المهووسة عن حجم القضيب وحده تدخل في كتب الأرقام القياسية.

في كل مرة أقرأ فيها المزيد من الأسئلة أقول لنفسي: إن من يقرأ كتب الجنس القديمة لا يمكنه أن يعيش هذا البؤس النظري والعملي، لذا يجب إخراجها إلى النور، من السرية إلى العلنية. يجب الانتقال من الخوف منها إلى المجاهرة بها، من حجبها إلى الكشف عنها.

ستكون هذه الفكرة هي نهاية دراستي. سأقترح إعادة نشر هذه الكتب مرات ومرات، توزيعها، تعميمها، تدريسها. في قسم اللغة العربية ومع أساتذتنا الشيوخ لم نسمع بها حتى تلميحاً. عرفتها وحدي بجهودي الخاصة ورغبتي في التعلم. عندما أتحدث عنها حولي أكتشف ندرة من قرأها وتعلم منها. عندما نشر أحدهم منذ سنوات في مجلة أدبية أسماء العضو الذكري كما ترد في أحد الكتب الجنسية كان الأمر نصف فضيحة: المجلة يقرأها الجميع والكتب لا يراها إلا من يبحث عنها.

قال رئيس المكتبة الفرنسي، أثناء مأدبة شبه رسمية، إن زجاجة الخمر والمرأة تكونان أفضل في وضعية الاستلقاء. استنكر الجميع

كلامه الذكوري المعلن. أنا فكرت فيما لا يعنيه الرئيس وخطر لي أنني تعاملت الحياة مستلقية. لا أظن أني كنت أستلقي لأتعلم. ولكن التعلم كان يأتي مكثفاً وأنا في أحضان رجل.

أمس، في مكتب زميلتي فادية، كنت أنظر إلى جمالها الخفي ويخطر لي أن حزام عفتها يخنقها وأنها بحاجة إلى التمرغ سنوات على جسد رجل كي تنجلي. سيفرك الرجل جلدها طويلاً وكأنها في حمام وسيطلع شكلها الحقيقي المختفي وراء طبقات من العفة المفروضة. نعم. سيفركها حتى يخرج الدم الفاسد الراكد كله لتتصالح مع جسدها ومع العالم.

أعرف أنها تدور في حلقة مفرغة: وحدها لا يمكن أن تتعلم، والرجل غائب حتى الآن. أظن أن هذا يحتاج إلى تدريب لا بد من أن يبدأ بمصاحبة رجل. نعم، نعم. الرجل يسهل الأمور. يسرعها، ولا سيما في البداية. أين هذا الرجل؟. لماذا لا تتقاطع طريقه مع طريق فادية؟. لماذا لا يرى إشعاعها الذي أراه أنا؟. لماذا تعيش وحيدة مع نارها اللافحة إلى الداخل؟.

معها لا يتغير السيناريو: نبدأ بالكلام عن العمل، ونكوع مباشرة إلى الحديث عن النساء والرجال. كيف وصلنا اليوم إلى موضوع التربية الجنسية؟. كيف تداعى بنا الحديث؟. هي التي بدأت في التشكي:

- لم يعلمونا كيف نتصرف مع الرجال. لم يعلمونا قراءة هذا العالم الذي لا نعرفه. عالم مختلف تماماً.

- يعلموننا عندما نكون صغاراً. عندما نكبر نعلم أنفسنا. أجيب.

لَم يعلمونا؟. كنت أستمع إليها وأفكر أن أحداً لم يعلمني، ولا أريد من أحد أن يعلمني. أتعلم وحدي خلسةً عن الآخر الذي أتعلم منه. أتعلم متظاهرة بالعمى والطرش والخرس.

أعود إلى حديثها. أين وصلتْ؟.

- أمي فهمتْ متأخرة. هي فخور بنا الآن. تقول بناتي مستقلات كالرجال. يعملن ويعشن وحيدات. كالرجال.

- لماذا كالرجال؟، سألتها.

- لأنها غير معتادة على حياة كهذه للنساء. المرأة عندها لا يمكن أن تكون إلا مُعالة.

قالت فادية: يخاف الرجال المرأة المستقلة.

قالت فادية: أنتظر رجلاً مخلصاً لأرتبط.

معنى ذلك أنك ستبقين وحيدة. أجبت مع ضحكة مخففة.

- لماذا تقولين ذلك؟، في العالم أناس مخلصون. كانت أمي مخلصة لأبي. أخي مخلص لزوجته.

- كيف تتحدثين عن الآخرين بهذه الثقة؟.

- أضع يدي في النار إن لم يكونا مخلصين.

- لا تضعي يدك في النار إلا عندما تتحدثين عن نفسك. الآخر، أياً كان، مخلوق معبأ بالأسرار.

أنا واثقة. أنا واثقة. تكرر وتعيد.

أسكت أنا، وتتابع هي: المرأة تتحدث زيادة عن اللزوم. لا تعرف

أين نسكت وكيف تسكت. لم يعلمونا.

حكيت لها عن إحدى بطلة المسلسل الأميركي «الجنس والمدينة» الذي رأيته أمس: تكبح جموح الرجل الذي ينام معها لتشرح له أنها ليست أمه، ولذلك لن يطلق على ثدييها ذلك الاسم الطفولي السخيف، ولن يمص حلمتها بهذه الطريقة لأنه ليس رضيعاً ولكنه رجل وهي امرأة يشتهيها وليست أمه. إلى آخره. إلى آخره.. خلال المحاضرة كان انتصاب الرجل يتقوض كي يندثر تماماً. سيلبس ثيابه ويرحل تاركاً إياها رافعة حاجبيها بدهشة متسائلة عن أسباب الانسحاب. المتفرج يفهم جيداً أن عليها أن تنكتم وتتركه يرضع من ثديها حتى الشبع. شبعهما معاً. هي لا تفهم. ضحكنا.

احتجت فادية:

- لكن هذا ليس مقبولاً.

من المؤكد أنني أحب أن أتعلم، لكنني لا أملك نزعة تعليم الآخرين. لا أملك هذا ولا تملكه ابتسام أقرب صديقاتي. كبرنا معاً منذ الطفولة، ومع ذلك لا أتذكر أننا تكلمنا يوماً على موضوع الجنس كلاماً مباشراً على نحو يخص حياتنا. في الجامعة، في عز غرامي، لم أحك لها شيئاً، وفي عز غرامها لم تحك لي شيئاً. القليل عن الحب ولا شيء عن الجنس، كأننا ننتمي إلى الملائكة. في السنوات الأخيرة بدأنا نتكلم تلميحاً؛ ربما بعد أن تزوجنا وعشنا في التبات والنبات وخلفنا صبياناً وبنات.

عندما أقرأ في الروايات أو أرى في المسلسلات والأفلام كيف تتحدث البنات بين بعضهن يخطر لي أنني لم أعش هذا أبداً. لم

أعرفه. الكلام الحميمي تبادل ثقافي حقيقي. عشته أحياناً مع نساء عابرات التقيت بهن عرضاً، لكنه لم يحصل أبداً مع صديقاتي المقربات. ولا حتى مع أخواتي. حتى بعد الزواج.

الوحيدة التي كانت تتحفني بتفاصيل حياتها الجنسية هي رحاب. أستمع إليها بفضول مرضي، ويخطر لي أن الغربة حررت بعض النساء العربيات وساهمت في كسر قانون التقية، شفهياً وتحريرياً.

في برنامج للإذاعة الثقافية الفرنسية سجلت المخرجة اللبنانية، التي تعمل في فرنسا، شهادات جريئة لشبان وشابات عن حياتهم الجنسية في بلدهم. التفاصيل الصريحة التي سمعتها بالكلمات العربية الدارجة، مع ترجمة موازية بالفرنسية، لم أسمعها في حياتي. وخطر لي أن هذا يمكن أن يُقال وبهذه الكلمات لأنه يتوجه إلى جمهور غربي في إذاعة غربية. لا يمكن أية إذاعة عربية معلنة أن تبرمجه.

رحاب أيضاً كسرت قانون التقية بفجاجة مبتذلة. تعمل معنا في المكتبة. أتت إلى باريس من وسط تقليدي، تزين مكتبها بصور أخواتها المحجبات وتحكي عن حياتها الجنسية وكأنها تعرض عليّ أوسمة أنوثتها. تتحدث بشراهة، كما تأكل بشراهة. أضحك معها باهتمام خبيث وأصغي إلى جديدها. حكاياتها دائماً عن آخر رجل من رجال حياتها. لا يبقون طويلاً، وأفهم جيداً ألا يبقوا. فيها ما يضرب على أقوى عصب. يشمعون الخيط ويهربون. تابعتُ مسلسل أخبارهم بالتفصيل. منذ أيام الأول الذي كان يبحث عن إقامة شرعية في فرنسا له ولحبيبته. زواج شبه حقيقي مع رحاب انتهى بطلاق عندما حصل العريس على أوراقه النظامية خلال المدة القانونية. عاد بعدها إلى حبيبته، وكأن شيئاً لم يكن،

لترتيب إقامتها هي الأخرى، من خلال زواج حقيقي. بعده كرت السبحة واستغنت عن عدهم.

ربما كانت حكاياتها عنهم هي التي تربطني بها. هي التي تجعلني أتحمل صوت تنفسها العالي وهي تتكلم بسرعة وتضحك بسرعة:

- كان عند الجارة. لم يحاول حتى أن ينكر. عندما واجهته أجاب ببساطة: كنت أعاونها في حديقتها، لماذا تقلبينها دراما؟.
- صحيح. لماذا تقلبينها دراما؟، قلت وأنا أتذكر مسلسل (ربات منزل يائسات) و(غابرييلا وعشيقها الجنايني).
- تصوري. يجرؤ على ذلك، عينك عينك، بعد كل ما فعلت من أجله.

في الحلقة السابقة من مسلسل رحاب كانت قد أطعمته من جوع، وآوته من تشرد، وتزوجته على سنة الله ورسوله في جامع باريس، بانتظار الزواج المدني عند السيد العمدة، كي يحصل العريس الطالب على أوراق إقامة دائمة.

- منذ عام لم يكن لديه مكان ينام فيه. أنقذته. تعرفين أنه جاء في البداية لإجراء بعض التصليحات الضرورية في بيتي الجديد. تطوع لمساعدتي. دخل الشقة ولم يخرج.

ضحكتها الهيستيرية الغاضبة تقطع جملها كعلامات الترقيم.

- كان طالباً في الأوراق فقط. لديه شهادة جامعية. هنا كان يبيع الخضر في السوق ليعيش على الكفاف. منذ أن سكن

معي ترك شغله.

- التفرغ ضروري. أجيب بلؤم.

تتابع الضحك وكأنها تستعيد ذكريات سعيدة:

- منذ الليلة الأولى جاء إلى سريري.

تتباطأ كلماتها:

- الحق علي. هذه نهاية التفرغ. يعاون الجارة في حديقتها. سأربيّه. سيرى.

تستعيد تعبير وجهها النوستالجي:

- تعرفين ماذا يعجبني فيه؟. ما إن ألمس عضوه حتى يقف. مستعد في كل وقت. يبدو أنه كان مكبوتاً قبل أن يأتي إلى باريس. في بلده لم يكن يعرف إلا الاستمناء. كان طالباً في الجامعة. حتى الشراميط كانت غالية عليه.

أنا يعجبني إدراكها أبعاد المسألة.

رحاب هي الوحيدة التي تذهب معي إلى نهايات التفاصيل في هذه الأمور. ويخطر لي دائماً، وأنا أستمع إليها، أن البنات، حتى المقربات، لا يفعلن هذا. أمامي على الأقل.

بعكس الرجال، أصدقاء أو لا أصدقاء. أغلبهم في حالة استعداد دائم كي يفرش جرابه. كي يدلق عليك مغامراته العاطفية وحتى الجنسية. كي يشركك في تجاربه. أنا كنت طوال حياتي مستمعة متنبهة. كنت جمهوراً مثالياً بفضولي الذي لا يشبع، وضحكاتي

التي لا تنتهي.

أذكر أنور. كان ذلك في المكتبة الأولى التي عملت بها في باريس. يتحفني كل صباح، عندما يخلو المكتب المشترك ونبقى وحدنا، بحكايات البنات اللواتي غازلهن في الطريق أو في القهوة أو في الباص أو في المترو، وحتى في المكتبة. كان متزوجاً وحذراً يبقى في العموميات.

ألبير كان متزوجاً هو الآخر. حكاياته تضرب على عصبي لأنها موجهة لهدف واحد هو إقناعي بجدارته الثقافية والعاطفية والجنسية، علّ وعسى.

غدير الذي يحكي التفصيلات الدقيقة كان أعزب أيضاً، بمخيلة غنية تشفع له.

في المكتب المشترك كنت البنت الوحيدة وكان كل منهم ينتهز فرصة غياب الآخر أو ابتعاده، ليقص قصصه الحقيقية، أو المختلقة. النتيجة واحدة. كنت أتسلى كثيراً. أفتح أذنيّ وأضحك. هزمت مخططاتهم الواعية أو اللاواعية، ولم أفتح لهم إلا أذنيّ.

من المؤكد أني تعلمت كثيراً من هذه الحكايات وغيرها. أسمع بخفة. في الحقيقة أتظاهر بأني أسمع بخفة. تعليقاتي ضاحكة باترة، لئيمة أحياناً. عندما كان الواحد منهم ينظر إلى وجهي ليري تأثير كلماته، لم يكن يرى إلا ضحكتي المستخفة. ولكني كنت أسجل كل ما أسمع. أرتبه. أبوبه. أفرزه. وأتعلم. أليس التوثيق مهنتي؟.

في هذا الصيف الحار أعود إلى الكتب القديمة وإلى المفكر وتشتعل

الدنيا حولي. هل ما أكتبه هو الذي ينعكس على نظرتي؟. هل كان العالم ملتهباً هكذا دائماً؟.

ماذا يحدث؟.

الجنس في كل مكان. أفتح الصحيفة فأجده يتربع على أغلفتها ويتصدر صفحاتها أو ملاحقها. التلفزيون. الراديو. كانت هناك إعادات، برنامج (بريجيت لاهي) لمساءاتي الطويلة، الآن صار الجميع تلاميذ موهوبين في مدرستها.

ماذا يحدث هذا الصيف؟.

ما التقيت أحداً في هذه الأيام إلا بدأ يحكي لي حكاياته الجنسية. وكأن محرضاً سرياً دغدغ الناس جميعاً.

كأن الآخرين يدركون ما أبحث عنه من النظرة الأولى.

هل تظهر أعراض فضولي الجنسي عليّ إلى هذا الحد الصارخ؟.

متى اكتشفت أن فضولي الجنسي ليس إلا فضولاً معرفياً؟.

أضحك عندما أقرأ أن كل امرأة هي محصلة الرجال الذين مروا في حياتها. «لا نتعلم إلا ما نعرفه»، كانت جملة أخي يرددها دائماً. منه أيضاً تعلمت.

رغبتي في التعلم هي محركي الجنسي. لا. محركي الجنسي هو رغبتي في التعلم. تعلّم الشهوة، اللذة، نفسي، الآخر، العالم.

بعد المفكر صار حكمي على كل رجل جديد في حياتي يعتمد أساساً على خصاله البيداغوجية. أحبُّ أكثر من يعلمني أكثر.

بعد المفكر ما عدت أتحمل رجلاً لا يعلمني.

اقترنت عندي لذة التعلم بلذة الجنس. تداخل مركز اللذة مع مركز المعرفة في رأسي وتشابكا معاً من دون انفصال.

كان فضوني الجنسي مفتوحاً كهاوية، وكان على من يصطدم بي أن يسقط فيها.

يقال إن البكر، إذا طال عهدها عن النكاح، أورثها مرضاً يسميه الحكماء (اختناق الرحم)، وهو مرض يورث الهذيان والماليخوليا في الدماغ، حتى يظن بها الجنون وليس كذلك، فاذا نُكحت برئت لساعتها.

إذا قلت هذا أمام مناضلة نسوية فستعلن علي الحرب وتتهمني بالخضوع للإيديولوجيا الذكورية.

من يرد إطلاق الرصاص لا يسرد قصة حياته.. قال الشرير في الوسترن السباغيتي قبل أن يجندل ضحيته الثرثار. أعدتها على فادية ولم تضحك. ضحكتُ وحدي. تركت مكتبها وأنا أهز رأسي. هي أيضاً ستقوض بجدارة أكبرَ انتصاب. لا فائدة. وضعها صعب. واضح أنها لم تتعلم. تتابع النضال ضد جسدها وضد الرجال والحرب تبدو طويلة.

سأنصحها بقراءة أخبار الألفية، التي أعدها من أهم الداعيات إلى تحرر المرأة، جنسياً على الأقل. شخصية أسطورية.

المرة الأولى التي التقيتها فيها ووقفت معجبة أمام سعة علمها كانت عند الجاحظ. هو الذي عرفني بهذه الشخصية الاستثنائية.

امرأة عاشت تجربة عملية ومن ثم وضعت هذه التجربة في محصلة نظرية تقدمها للعالم كله، ولا سيما للنساء داعية إياهن إلى التشبه بها والتزيد من علمها. معلمة بالفطرة. سبحان الله.

من المؤكد أن الجاحظ كان معجباً بها لأنها كانت أعلم أهل زمانها بأحوال الباه. وما زاد إعجابه أنها، مثله، تنتمي إلى تلك المدرسة من العلماء الذين لا تشفيهم إلا المعاينة. لا يتحدثون إلا فيما يعرفونه بخبرتهم الخاصة.

عندما وجهت إلى الألفية أسئلة، ضمن اختصاصها، في مجلس نساء: **أخبرينا عن الجماع، أنواعه واختلافه؟.**

أجابت العلاّمة: **سألتني عن شيء لا أقدر أن أكتمه ولا يحل لي أن أخفيه.**

جاءت إلينا أخبار الألفية نقلاً عن الآخرين. عند الجاحظ جاءت هذه المرأة من بلاد الهند إلى كتب الجنس لتصير أسطورة يتناقلها العرب، ولا سيما الرجال، ببعض الخوف والحسد والإعجاب. تبدأ الأسطورة من اسمها. الألفية لأنها نامت مع ألف رجل. لماذا أقول نامت. من المؤكد أنها كانت صاحية تماماً. لا تنام ولا تدع الرجل ينام. لماذا أستعمل هذه الأفعال الغبية. الكتب تقول: ذلك أنه قد وطأها ألف رجل. كانت الأمور واضحة عند العرب. لا من نام ولا من صحا. وطأ هو الفِعل.

ما معنى وطأ في «لسان العرب»؟. ما عدد الأفعال بالمعنى نفسه؟. لا، ليس تماماً. لكل فعل معنى محدد مختلف. لم أعدّها ولكنها كثيرة. هناك من يقول لك بتباه: إن هناك مئة كلمة تطلق على

الفرج، ومئة أخرى تسمي الأير. الحكاية ليست هنا: إنها في المعنى المختلف الذي تحيل إليه بتحديد كل كلمة.

بمنهج علمي تبدأ في الإجابة محددة ستة أحوال أساس:

الاستلقاء والقعود والاضطجاع والانبطاح والانحناء والقيام. لكل حال منها عشر وضعيات على الأقل، ولكل وضعية اسم. ستون وضعية إذن. من تلك السهلة التي يطبقها الجميع، إلى النادرة التي لا تخطر على بال وتحتاج إلى مرونة جسد رياضي ومهارة لاعب سيرك.

ستوضح الألفية لمستمعاتها ما الذي يُنبت محبة النساء في قلوب الرجال وما الذي يتلذذون به ويكرهون من أخلاقهن، وما الذي عليهن فعله لاستجلاب محبتهم.

لو كانت الألفية الآن بيننا لكتبت كتاباً عن حياتها الجنسية، ولوضعت صورتها عارية على غلافه، ولتصدرت قائمة المبيعات، ولترجمت إلى اللغات الحية جميعها، ولطارت شهرتها في العالم كله.

هل كان يمكن أن يخطر للألفية أن حفيداتها انتشرن في كل بقاع الأرض، وفي اللغات جميعها، من دون أن يعرفن حتى اسمها هي الرائدة.

١١

باب الحيَل

عندما رحل المفكر بقيتُ مصدومةً كرضيع فطمته أمه قبل أن يشبعَ، في حالة من الفقد، من النقصان، من الوجع، من الهلاك.

كان المفكر سري وكان علي أن أتابعَ حياتي العلنية، من دون أن يكتشف الآخرون السر.

عندما رحل المفكر تمنيت له الموت وبنيت قبراً لي ونسيته في قلبي. كان علي أن أحمي نفسي. حميتها بموتي. متى بعثت من جديد؟.

كان سهلاً أن أخفي حياتي الموازية عندما كنت معه. اللاحياة الموازية من دونه كانت أكثر صعوبة.

كان علي أن أفعل.

عشت شهوراً كالأحياء الأموات. زومبي. أتجول في حياتي مفرّغة من كل حياة.

أصحو، وأنام، أبتسم، وأتكلم، وأضحك، وأعمل، وأسافر، وألتقي الآخرين.

أقوم بكل واجباتي الخاصة والعامة، وأنا أتأمل قدرتي على التمثيل. أفعل كل شيء بموهبة ازدواج ما كنت أعرف أنني أمتلكها إلى هذا الحد.

أحرك جسدي بخيوط لا مرئية بمهارة صانع العرائس الموهوب.

عندما رحل المفكر تمنيت له الموت. فهمت لأول مرة حكاية قرأتها في طفولتي: الملك الذي طلب من ابنته أن تحدد نهاية حبيبها السجين باختيار أحد بابين، باب يقوده سالماً إلى امرأة أخرى، وباب يقوده إلى الموت في مواجهة أسد. كانت الحكاية معلقة دائماً. تنتهي بالسؤال عن الباب الذي ستختاره الأميرة. أنا كنت أعرف يقيناً أي باب سأفتح. لكن المفكر رحل من دون أن يترك لي الفرصة للاختيار. رحل قبل أن تنتهي الحكاية. رحل من دون أن أرى كلمة رحيله تنكتب في أفقي. هو الذي اختار الباب وتركني أمام وحش جرحي.

في نهاري كانت «أنا-المفكر» تصرخ وجعها وحيدة بعيداً عني. أسمع صرخاتها تصم أذنيّ، وأعرف أني يجب ألا ألتفت إليها وإلا سقطتُ كعمارة مغشوشة.

في الليل كنت وحدي، أعود إليها أتصالح معها ونتوحد من جديد في الفقدان. أنام وأصحو، عيناي جافتان كبئر مهجورة ونفسي أكثر جفافاً.

كان علي أن أتسلح ببراءة الكذب كي أواصل الحياة.

يوماً، بعد أن مر الزمن مخدراً جرحي، انتفضتُ كمن صعق بشحنة كهربائية عالية، عندما قال لي رجلٌ آخر، برنة الصوت نفسها واللهجة الواثقة نفسها: أنت جميلة. ابتسمتُ في وجهه، وفي لمحة عابرة كدت أصدقه.

بعد سنوات من رحيل المفكر فهمت أن لكل منا مفكراً أو مفكرة (أو أكثر؟)، ينتظرنا في مكان ما من هذا العالم ليجلونا لأنفسنا، لنكتشف قدراتنا، لنذهب أبعد في متاهات ذواتنا.

بعد سنوات من رحيل المفكر فهمت أن لكل منا مفكراً ينتظره في لحظة من لحظات حياته. في درب من دروبها.

قد نضيعه بكلمة، بهزة كتف، برحلة مؤجلة، بتسويغ مرتبك، بخوف تاريخي بليد، بقواعد لعبة نخضع لقوانينها.

هناك من يعيش ويموت من دون أن يلتقي هذا الآخر الأساس، الذي يفتح أبوابه المغلقة على العالم.

هناك من يعيش ويموت خسةً بائسة، ينشف ماؤها من دون أن تتحول يوماً إلى جمرة تحرق كل ما يقترب منها. كل من يقترب منها.

هناك من يعيش ويموت من دون أن يعرف طريق جسده وأجساد الآخرين.

كم تكومت من تفاصيل الظروف كي أكتشف وجود المفكر ويكتشف وجودي، كي أراه ويراني؟.

كم تكومت من تفاصيل الظروف كي تكون لحظة الكشف الأولى التي قررت كل شيء؟.

هذا كله أستطيع الآن أن أحركه في ذهني، حبة حبة كالمسبحة، ولكنني يوم التقيته كنت بعيدة عن إدراك خيطها الذي بدأ يلضم الحكاية. حكايتي؟.

خلال سنوات بعد رحيل المفكر، كنت أهمس أحياناً باسمه. أدرك ما أعطاني وأشكره على عطائه. في أحيان أخرى ما كنت أستطيع أن أمنع نفسي من أقول له: أيها المفكر، عليكَ اللعنة.

بعد سنوات من رحيل المفكر كففت عن المقاومة واعترفتُ.

في البداية كان يسألني: هل ما بيننا حكاية جنس فقط؟، وأتهرب من الرد.

في النهاية لم يعد يسأل.

في النهاية رحل.

في النهاية؟.

بعد سنوات من رحيل المفكر انبثقت في رأسي جملة لشاعر ألماني كان يرددها هو أمامي: خلق الله الإنسان كما يخلق البحر القارات، بالانسحاب. هل انسحبَ هو لأُخلَقَ أنا؟.

أعود إلى قراءة ما كتبت عنه، ويخطر لي أن ما حكيته لم يكن عنه وحده. اختلطت الحكايات واختلط أبطالها. ربما ذابوا جميعاً في المفكر. من جاء قبله، ومن جاء بعده.

عندما أبدأ في اقتفاء أثر أي واحد من قدمائي سرعان ما يأخذ صورة المفكر، كأنهم ذابوا جميعاً في خلاصته. تركوا له أمكنتهم ورحلوا. سلموا له كما سلمت أنا. سلموا له من دون أن يعرفوا عنه شيئاً. رحلوا، وبقيت معه أنا التي أعرف كل شيء.

الآن، وأنا أعيد قراءة ما أكتب، يخطر لي أن كل ما عشت كان من صنعي أنا. المفكر لم يفعل شيئاً إلا أن يرفع الغطاء عن كلّ ما جمعتُ من قبلُ. جاء في اللحظة المناسبة كي أصل إلى المعنى. لم يمنحه لي. أنا التي وجدته من خلاله.

الآن، وأنا أعيد قراءة ما أكتب، يخطر لي أنني نسجتُ للمفكر صورة أسطورية لا علاقة لها به. صورة تتناسى كل ما يجعل منه هو. قلت له: كن، فكان كما خلقته أنا بكلماتي. هذه الصورة ملكي ولا علاقة له بها.

لماذا المفكر؟.

يخطر لي السؤال وأنا أعيد الآن قراءة ما أكتب. لم يكن الأكثر جمالاً، أو ذكاء، أو شباباً، أو علماً، أو فحولة، أو خفة دم، أو وجاهة، أو . . أو . .

لم يكن.

كان هو.

كان المفكر.

يخطر لي الآن، وأنا أعيد قراءة ما أكتب، أن المفكرَ كان حيلةً من حيل الكتابة وأنه لم يوجدْ أبداً، ولذلك كان لا بد لي من أن أخترعه.

أفهم الآن ماذا كان يقصد عندما يكرر في كل لقاء: أنت أصلُ ما بيننا. أنت المحركُ في علاقتنا. في المرة الأولى قالها وزعلت. ثم تآلفتُ معها وفهمتُ أبعادها ولعبتُ بها معه.

أنا صاحبة الحكاية، وهو ليس إلا موضوعها. أحكيها وألعب بها كما أشاء.

الآن يخطر لي أن كل ما عشت بعد المفكر لم يكن بعده. في زاوية من رأسي كنت قد خبأته. تعايشت مع غيابه واثقةً من لقاء مؤجل.

لم أبحث عنه، وهو لم يبحث عني. لم ألتق به حتى بالمصادفة. بعد كل هذه السنوات؟.

ظننتُ دائماً أن أياماً قادمة ستحمله إلي. ظننتُ أن ما علي إلا أن أنتظر كي يأتي.

أن أنتظرَ؟.

لمْ أنتظر.

كانت خطوط حياتي المتوازية تتشابك وتتقاطع وتتوزع. تهدمت السدود واجتاحني سيل المياه جارفاً ليغير كل شيء.

لم أنتظر، فأنا لا أعرف الانتظار.

كنت واثقة من أن المفكر سيطلع أمامي ذات يوم في منعطف مفاجئ ليقول لي، كما في المرة الأولى، إن الغصة في حلقه، ليسألني عن عسلي وكأنه تركني أمس، وأرد أن عليه أن يجد

الجواب بنفسه، أن عليه أن يمد يده بين ساقيّ ليتذوقه. **برهان حلاوة العسل هو العسل نفسه، يقول ابن عربي**، كنت أرددها أمامه. صار هو الذي يعيدها علي عندما أنساها ليعلمني حتى ما أعلم.

الآن يخطر لي أن زمنَ ما بعد المفكر بدأ الآن فعلاً بعد أن كتبته.

الآن يخطر لي أن هذا الكتاب كتابه. وكأنه هو الذي زرع بذرته فيّ. وكنت بحاجة إلى كل تلك السنوات التي مرت كي يتكون في داخلي.

أذكر كيف كان يعيد علي في كل مرة: اكتبي عن هذه الكتب التي تحبينها. يجب أن تفعلي. أضحك وأهرب من الفكرة. ما كنت أجرؤ حتى على التفكير بها. كنت بحاجة إلى كل هذه السنوات كي تكبر فيّ. كنت بحاجة إلى كل هذه السنوات وإلى ذريعة خارجية كي أتجرأ على إنجاز دراسة عن الكتب الجنسية. كي أعلن ما كنت أعده سراً.

كنت بحاجة إلى كل هذه السنوات كي تعيدني الدراسة إلى زمن المفكر لأكتبه. لأعلنه هو الآخر ويصير حكاية.

زمن المفكر؟.

أمس -جاء المدير إلى مكتبي. لا بد أن الأمر خطير كي يدخل ويغلق الباب وراءه. أرفع رأسي بتساؤل صامت:

- اتصل بي مدير المكتبة الوطنية. هناك جديد. لأسباب أمنية ألغى الأميركان مشاركتهم في معرض (جهنم الكتب)، وبالتالي ألغيت

الندوة في نيويورك. قال الفرنسيون إنهم لا يستطيعون تحمل التكاليف وحدهم. لن نسافر إذن. ما رأيك؟. أين وصلت في مداخلتك عن الكتب الجنسية العربية؟. أنهيتها؟. آسف. يمكنك أن تنشريها وسأساعدك في هذا. آسف، فعلاً.

أسباب أمنية؟

يبدو الأمر كأنه نكتة. كنت أمنّي نفسي برحلة جديدة إلى نيويورك، المدينة التي سحرتني عندما زرتها للمرة الأولى. ما يهمني الآن هو البحث الذي أنهيته والمفكر الذي استعدته. سأنشر الدراسة ولا حاجة بي إلى المدير الآسف، ولا إلى الأميركان والفرنسيين المرعوبين من بعبع الإرهاب.

أقر بفضلهم. لو لم يطلبوها مني لما تجرأت على كتابتها، ولا على استعادة زمن المفكر في نص مواز لها. نعم. لا يمكنني إلا أن أقر بفضلهم في هذا، وأشكرهم بنزاهة تعترف بالجميل.

كان المفكر سري، وكانت الكتب جزءاً من هذا السر. هل الفضيحة في الفعل، أم في إعلان الفعل؟.

من يسأل هذا السؤال؟.

لم أعش حكايتي فضيحةً، ولا أكتبها فضيحةً.

الفضيحة كانت في السر.

لم يعد السر سراً.

باريس/تونس

٢٠٠٥ /٢٠٠٦

المؤلفة

سلوى النعيمي، شاعرة وصحافية سورية. تعيش وتعمل في فرنسا.

صدر لها:

«**متوازيات**»، مجموعة شعرية.

«**كتاب الأسرار**»، مجموعة قصصية.

«**غوايةُ موتي**»، مجموعة شعرية.

«**ذهبَ الذين أحبهم**»، مجموعة شعرية.

«**أجدادي القتلة**»، مجموعة شعرية.

«**شاركتُ في الخديعة**»، مجموعة مقابلات أدبية.

«**إنا أعطيناكِ**»، مجموعة شعرية.

لها مجموعة قصائد مختارة بالفرنسية من ترجمتها، بعنوان «**أجدادي القتلة**». تُرجمت نصوصها إلى لغات متعددة منها الفرنسية والإنكليزية والألمانية والهولندية والإسبانية والعبرية.